الدكتور مصطفى غالب

في سبيل موسوعة فلسفية ١٣

برجسون

دار ومكتبة الهلال

هنري برجسون

في سبيل
موسوعة
فلسفية

هنري برجسون

تأليف
الدكتور مصطفى غالب

منشورات
دار ومكتبة الهلال

١٩٩٨

دار ومكتبة الهلال للطباعة والنشر
بئر العبد - شارع مكرزل - بناية برج الضاحية - ملك دار ومكتبة الهلال
تلفون: 601020، 600082 / 7 / 8 / 623526 (01) مقسم: 216، خلوي: 622366 (03)
فاكس: 603286 1 (961) - ص.ب: 5003-15 - بيروت لبنان

مقـدمـة

هنري برجسون من كبار الفلاسفة الذين قدموا للبشرية خدمات فكرية عظيمة ، سجلت على صفحات التاريخ بأحرف من نور ، لتضيء للانسانية دروب المعرفة ، وتدلها على مسالك الطاقات الروحية الكامنة في الوجود والموجودات .

ولم تقتصر فلسفة برجسون على تعريف الطاقة الروحية التي تعشعش في باطن الانسان فحسب ، ولكنها تعدتها الى السلب والايجاب ، حيث نلاحظ مواقف برجسون السلبية الهادفة الى تحليل وانتقاد وجهات نظر أصحاب المذاهب العلمية ، بالاضافة الى مواقفه الايجابية الناهدة الى ايجاد الحلول للمشاكل التي شعر بضرورة معالجتها لأن الآراء التي قيلت فيها غير كافية ولا وافية .

وبعد وفاة برجسون بخمسة أيام خطب بول فاليري في الجلسة التي أقامها المجمع العلمي في ٩ كانون الثاني سنة ١٩٤١ مبلغا أصحابه نبأ وفاته فقال : « كان برجسون فخر هذا المجمع ، انه الفيلسوف الكبير ، والكاتب العظيم ، والصديق الحميم للناس أجمعين • عمل مخلصا ، وبكافة امكاناته ، لتوحيد القلوب ، ولنشر الفضيلة والمثالية العليا ، معتقدا بأن هذه الوحدة في الصف ، كان يجب أن تسبق وحدة القوى ، والهيآت السياسية ، ولكن ، هل كان ما يجب أن نلمسه عكس ذلك يا ترى ؟ • • • كان هنري برجسون وجها متفوقا صافيا نقيا من وجوه رجال الفكر ، ولربما كان أحد أولئك الرجال الأواخر في الزمن الذي فكروا تفكيرا خالصا ، عميقا ، متفوقا ، في عصر يفكر الناس فيه أقل فأقل ، حيث يخيل لنا أن الحضارة تتحول ، يوما بعد يوم ، الى مجرد الذكريات التي تحتفظ بها من غنى حضارة متنوعة الاشكال، ومن دفق نتاجها العقلاني، الحر ، بينما نلمس عن قرب مختلف أشكال البؤس، والكبت ، والقلق ، تحط بالهمم ، وتقعد بالمشاريع الفكرية ، حتى ليبدو ، هنا هنري برجسون كأنه من عصر قد انقضى ، وكأن اسمه آخر اسم في تاريخ

الفكر الأوروبي (١) » .

من الواضح أن برجسون قد أطل على العالم بفلسفته التحليلية النقدية ، المنبثقة من صميم تفاعلاته العقلانية ، في الوقت الذي كان فيه الصراع محتدما بين المذاهب والأفكار الفلسفية المتضاربة والمتصارعة ، فأضفى على الأجواء العلمية ، والفلسفية ، مفاهيم ادراكية حسية ، منطلقة من معطياته الفكرية المثالية ، الاخلاقية الفياضة ، الفريدة في نوعها، التي فصلته عن المدارس الفلسفية العصرية ، حتى عن التي ربما وافقها في بعض الأفكار ، وانسجم معها في بعض الآراء .

وعندما نحاول أن نغوص في أعماق فلسفة برجسون ، ونلقي الأضواء الساطعة لنكتشف أسس فلسفته ، ومظاهرها المتعددة ، لا بد لنا من التطلع الى أفكاره المتعلقة بالشعور والحياة ، وتحليله لآلية الفكر ، والممكن والواقع، والزمان والمكان ، والروح والمادة ، والكيف والديمومة ، ونقد التفسير العلمي والجبرية العلمية .

---

(١) اندريه كريسون : برجسون ص ١٦ .

ومما لا شك فيه أن الفيلسوف برجسون قد أقام مذهبا روحيا ودأب على دحض الآلية ، وتقرير الحرية الانسانية ، من حيث هي واقعة مباشرة من وقائع الشعور الانساني • لذلك يمكننا أن نعتبر برجسون أول المجددين للفلسفة الافرنسية منذ نهاية القرن السابع عشر ، حين نشر مالبرانش كتبه الفلسفية •

ومن الملاحظ أن برجسون قد اتجه الى نقد التفسير العلمي الرياضي للظواهر النفسية •وعالج بأسلوب تحليلي دقيق مسألة التعبير عن الكيفيات النفسية وعما يقوم بينهما من ارتباطات تعبيرا فيزيقيا رياضيا • لذلك نجده يهتم في الفصل الأول من كتابه « مقال عن معطيات الشعور المباشرة » بمناقشة المفكرين الذين أسسوا علم السيكوفيزيقا • ولكنه لم يقف عند عرض تلك الأفكار ونقدها ، بل أراد بمناسبتها أن يوضح لنا موضوعات رئيسية ثلاثة هي : طبيعية كل حال من أحوال النفس ، ثم اتصال الحالات الشعورية في صيغة الديمومة ، وأخيرا مشكلة الحرية •

ويبين برجسون أن ادراكنا للشدة في الحالات

النفسية المختلفة يرجع اما الى تقديرنا لعدد الحالات البسيطة التي تتسرب الى الحالة الأصلية وتنضاف اليها ، كما هو الأمر في الحالات النفسية القائمة بذاتها أو المكتفية بنفسها مثل المشاعر العميقة والانفعالات الحادة ، واما الى تقديرنا لكم العلل الخارجية ومزجنا بين المؤثر الفيزيقي والحالة النفسية،كما هو الأمر في الحالات الشعورية المتمثلة عن سبب خارجي أو التي تصاحبها تغيرات جسدية مثل الاحساس بالصوت أو بالحرارة أو بالثقل أو بالضوء ·

ويرى برجسون ان فكرة الشدة تقوم عند التقاء تيارين يحمل الينا أحدهما من الخارج فكرة المقدار الممتد ، ويحمل الينا الآخر من أعماق الشعور صورة الكثرة الباطنية · واذا أمعنا النظر في الحالات النفسية الأولى ، أي الحالات الصرفة التي لا علاقة لها بالامتداد مثل الفرح أو الحزن أو الهوى أو الانفعال الجمالي ، تبين لنا أن هذه الحالات كيف محض ،وأن درجات الشدة ليست الا تبدلات كيفية· فمشاعرنا تتغير في كيفيتها كلها ، ونحن انما نشاهد تتاليا في الكيفيات المختلفة لا تزايدا كميا في الحالة ذاتها ·

ان الرغبة الضعيفة مثلا قد تتحول الى هوى عميق ، فيبدو لنا أنها قد ازدادت شدة بينما هي في واقع الأمر قد نفذت الى عدد أكبر من العناصر النفسية وصبغتها بلونها الخاص فتغيرت بالتالي جميع احساساتنا وأفكارنا • فليست الرغبة اذن كما يتزايد وانما هي كيف يتغير •

وعلى العموم فان فلسفة برجسون ونظريته الشخصية للادراك الحسي ، وللدور الذي يلعبه الجسد في حياة الأفراد • فالمعطى في نظره ، مجموع الصور ، والصور هي الأشياء ذاتها ، وهي أنواع وصفية مختلفة لا يمكن تحولها بعضها الى بعض ، أو احصاؤها ، حسابيا ، احصاء دقيقا ، انها في صيرورة دائمة ، وتطور دائم ، ان هذه الصور هي الكائن ذاته كما يرينا اياه في باطننا حدسنا للديمومة المحضة ، وكما يظهره لنا الانجذاب الملهم، في كل مكان •

١٩٨٠/١/٢٥

الدكتور مصطفى غالب

هنري برجسون :

كانت ولادة الفيلسوف الفرنسي هنري لويس برجسون في ١٨ تشرين الاول سنة ١٨٥٩ ميلادية في مدينة باريس ، شارع لامرتين • وما كاد يبلغ التاسعة من عمره حتى انتسب الى مدرسة كوندورسيه الثانوية كطالب خارجي • فأظهر تفوقا كبيرا في العلوم وفي الآداب ، حيث حصل في المسابقة العامة التي أجرتها تلك المدرسة على جائزة الشرف في علم الرياضيات والبلاغة •

والأستاذ الذي تولى تعليمه الرياضيات يدعى ديبوف ، الذي استغرب طاقة برجسون المدهشة في حل المسائل الرياضية المعقدة • حيث استطاع بواسطة البيكار والمسطرة حل مسألة الدوائر الثلاث

التي يتكلم عنها باسكال في مراسلته مع صديقه فيرما : « من ثلاث دوائر ، ثلاث نقط ، ثلاثة خطوط مستقيمة ، أو ثلاثة أية كانت ، يطلب ايجاد دائرة كلا من تلك الدوائر وتلك النقط وتترك ، على الخطوط ، قوسا يحتمل مثلثا معينا » • نشر حل برجسون ، هذا ، في حوليات الرياضيات • كان معلمه ديبوف يريد أن يتابع تلميذه دروسه العلمية اما في دار المعلمين العليا ، قسم العلوم ، واما في الجامعة العلمية • لكن برجسون كان يشعر بميل شديد الى الفلسفة فخاض مباراة دار المعلمين ، قسم الآداب ، وهذا ما أسماه ديبوف « عملا جنونيا » • دخل برجسون دار المعلمين العليا سنة ١٨٧٨م •

والجدير بالذكر أن رفيقه القديم رينه دوميك، قد وصف برجسون وصفا دقيقا في الخطاب الذي استقبله به بين أعضاء المجمع العلمي الفرنسي ، فقال له : « اني لا أزال أذكرك وأنت ، آنذاك ، ذلك المراهق النحيف البنية : قامة فارغة ، طرية العود ، وفتون دقيق ، أشقر ، وشعر أشقر ، كثيف، ضارب الى الحمرة ، يتفرق خصلا متناسقة على جبينك ، هذا الجبين الذي كان أبرز شيء يميزك ،

هذا الجبين العريض ، البارز ، الخارق ، بالنسبة الى وجهك الاهليلجي ، الناعم ، وتحت ذلك الجبين الفسيح ، عينان مندهشتان ، نوعا ما ، ترسلان تلك النظرة التي نلاحظها عند رجال الفكر والتأمل ، والتي لا تخدع ، تلك النظرة الغائمة ، المتفردة ، المنطوية على ذاتها ، المتجهة نحو الباطن ، مع كثير من الجد المرفق بكثير من العذوبة ، في رصانة باسمة ، وفي بساطة ووداعة غير مصطنعتين ، وأدب جم • كنت تتكلم قليلا ، ولكن ، بصوت صاف ، متزن ، مفعم بالاحترام لرأي مخاطبك ، ولا سيما حينما كنت تبين له ، بكل هدوء ولطف ، بطلان ذلك الرأي » •

ومما يلاحظ أن برجسون رغم مشاغله الكثيرة لم يهمل ممارسة الرياضة البدنية ، وقد روى لنا بالذات كيف جمح به جواده ، خلال نزهة كان يقوم بها في غابة بولونيا ، حينما راع ذلك الحصان الذي كان يركبه « ظهور راكب دراجة يمر بها كالسهم » فكاد أن يطيح ببرجسون عن ظهره ويدق عنقه •

كان برجسون يفضل الوحدة والانفراد مع ذاته

يحدثها وتحدثه ، يبتعد بقدر الطاقة عن رفاقه في دار المعلمين العليا ، وكان بين أولئك الرفاق : جان جوريس ، ومونستيور بودريار ، وموريس بلونديل • ألحق برجسون بدار الكتب حيث كان يقضي معظم أوقاته بين الكتب مهتما بمطالعتها وسبر أعماقهاأكثر من اهتمامه بتوضيبها وترتيبها •

ولقد لفت نظره مرة أحد أساتذته ، ويدعى غومي ، ذات يوم ، الى بعض الكتب المبعثرة في المكان الذي كان يعمل فيه في دار الكتب ، قائلا له : « لا شك في أن نفسك ، بصفتك كتبيا ، تتألم من هذه الحالة » ، حينئذ هتف جميع تلامذة قسم الفلسفة : « ليس لبرجسون نفس » • كان هذا الهتاف مزاحا أكثر منه حكما عليه من رفاقه الذين كانوا يعرفون قلبه ، ويشعرون بعبقريته ، كما عرف ذلك فيما بعد أستاذاه في المحاضرات الفلسفية: أوللي لابرون خلال السنة الأولى ، وأميل بوترو خلال السنتين الثانية والثالثة • في نهاية السنة الثالثة ، نال برجسون ، بعد دخوله مسابقة الأهلية للتدريس ، المرتبة الثانية أمام جوريس ، رئيس الفوج •

وبعد ذلك ، عين برجسون استاذا في ثانوية أنجيه حيث ظل فيها من سنة ١٨٨١ ميلادية الى سنة ١٨٨٣ ، ثم اختير ليكون أستاذا للفلسفة في ثانوية كليرمون فيران حيث أقام فيها حتى سنة ١٨٨٨م . وقد قبل في نفس الوقت ، ليلقي محاضرات في معهد الآداب ، ثم نشر ، في طبعة معدة للتعليم الثانوي ، مقتطفات من لوكريس سنة ١٨٨٤ . وفي شهر آب سنة ١٨٨٥ ، وخلال توزيع الجوائز على تلامذة المدرسة الثانوية ، ألقى خطابا في التهذيب . كانت أطاريحه على وشك الاكتمال حينما دعته باريس للتدريس في مدرسة روللين الثانوية ، ثم في مدرسة هنري الرابع الثانوية . ومنذ سنة ١٨٨٩ دعم أطاريحه بتفوق ، وقد أحدثت اطروحته الفرنسية ضجة في الأوساط الفلسفية ، وكان عنوانها : محاولة في معطيات الوجدان البديهية .

كان تلاميذه ، في ثانوية هنري الرابع ، يحفظون له أطيب الذكرى ، وحينما انتدب ، في سنة ١٨٩٥ ، لكي يلقي خطاب حفلة توزيع جوائز المباراة العامة ، تناول الموضوع التالي : في العقل القويم والدروس اللاسيكية .

ولكن ممارسة برجسون لمهنة التعليم لم تصرفه عن أشغاله الخصوصية : فقد نشر ، سنة ١٨٩٧ ، كتابا بعنوان : مادة وذاكرة ، محاولة في الملاقة القائمة بين الجسد والروح • وفي السنة التالية ، عين مديرا للمحاضرات في دار المعلمين العليا ، ثم تخلى عن هذا المنصب ، سنة ١٩٠٠ لكي يصبح أستاذا في الكوليج دوفرانس ، حيث درس ، أولا ، الفلسفة القديمة ، ثم درس سنة ١٩٠٤ ، الفلسفة العصرية خلفا للأستاذ غبريال تارد ، وقدم ، بعد بضع سنوات ، لمؤلفات هذا الأستاذ •

كانت دروس الجمعة التي كان يلقيها برجسون في الكوليج دوفرانس تجلب جمهورا غفيرا من المستمعين • وقد كتب م• ج• شوفاليه في ذلك يقول : « كان يجتمع ، هناك ، فلاسفة ، وعلماء ، وكثير من الشباب المتشوقين الى العلم والعمل ،ورجال قد ملوا ضغطا ذهنيا طويلا ، وعدد كبير من النساء جذبتهن شهرة المحاضر ، بلا ريب ، وحب الاطلاع على تلك المسائل العليا التي كن يجتهدن ، كما قيل ، في فهم قسم منها بعقلهن ، والقسم الآخر بقلبهن • غير أن شخصية برجسون لم تكن غريبة عن نجاحه : كان صمت عميق يسود القاعة ،ورعشة

خفية تهز النفوس حينما كانوا يرونه يظهر ، بكل هدوء ، في آخر القاعة ويجلس تحت المصباح الملثم ، حر اليدين ، أو مضمومهما ، لا رؤوس أقلام أمامه، بجبينه العريض ، وبعينيه الصافيتين كأنهما مشعلان تحت حاجبيه الكثيفين ، وبقسمات وجهه الدقيقة التي كانت تظهر ، بالمقارنة ، ضخامة جبينه واشماع فكره اشماعا غير مادي . كان نطقه متئدا ، دقيقا ، منتظما ، كخطه ، بالغ الاتزان ، في نبرات ناعمة ، موسيقية ، ذات دلال . أما انشاؤه فكان متقنا ، طبيعيا ، لا أثر فيه للتكلف » .

وفي السنة التي أصبح فيها أستاذا في الكوليج دوفرانس ، نشر كتابا بعنوان : « الضحك » وفي سنة ١٩٠٧ نشر كتابا آخر بعنوان « التطور الخلاق » . وقد اشترك في المؤتمرات الفلسفية في فرنسا وفي خارجها ، ونشر مقالات في المجلة الفلسفية التي كان يديرها ت. ريبو ، وفي مجلة الأخلاق وما وراء الطبيعة التي أسسها كزافيه لاون ، وفي تحرير القاموس الفلسفي بالتعاون مع م. لالاند ، وتبادل رسائل ذات أهمية كبرى مع الفلاسفة ، والعلماء ، ومع عظماء رجال العالم : كان يكتب رسائله بخط يده ، تهذيبا وأدبا ، حتى

بعد أن أثقل المرض كاهله وجعل الكتابة عبئا ثقيلا على أنامله ٠

أناب برجسون وكيلا عنه في الكوليج دوفرانس سنة ١٩٠٥ وسنة ١٩٠٩ ، وكذلك سنة ١٩١٢ التي أرسل فيها بمهمة الى الولايات المتحدة الامريكية لالقاء المحاضرات في جامعة كولومبيا في نيويورك بعنوان « روحية وحرية » ٠ أراد برجسون أن يراعي وضعه الصحي سنة ١٩١٤ فأناب عنه وكيلا في الكوليج دوفرانس وهو م٠ ليروي ، الذي كان مرشحا ليخلف برجسون سنة ١٩٢١ عندما يضطر برجسون للتخلي عن كرسيه ، بسبب حالته الصحية٠

وظل برجسون محافظا على نشاطه ، ووضع جميع امكاناته لخدمة بلاده ، وكتب في هذا الصدد يقول : « ان نشاط الشعوب الروحي ، مثل نشاط الأفراد الروحي ، لا يدوم الا بواسطة مثال أعلى تتمسك به تلك الشعوب عندما تشعر بانحطاط شجاعتها » ٠ وقد قبل برجسون أن يذهب بعدة مهمات الى اسبانيا والى الولايات المتحدة الامريكية حيث كان له أصدقاء كثيرون ٠

وفي نهاية الحرب العالمية الأولى ، اهتم برجسون

لأعمال جمعية الأمم ، وقبل برئاسة لجنة التعاون الفكري . وفي سنة ١٩١٩ جمع مذكراته ونشرها بعد أن أجرى عليها بعض التعديلات ونقحها ، تحت عنوان : « النشاط الروحي » ووجه اهتمامه البالغ لانتاج اينشتاين ، ونشر ، بخصوصه ، كتابا عنوانه « استمرار ومعاصرة » سنة ١٩٢٢ . لكن المرض الذي مد جذوره في جسده منذ عدة سنوات أجبره على الاهتمام بصحته ، والى الحد من نشاطه الجسدي ، فتخلى عن لجنة التعاون الفكري .

ورغم سوء أحواله الصحية ، فقد ظل نشاطه الذهني والفكري كاملين ، وعقله في غاية الصفاء ، كما كان في شبابه دائما . ففي سنة ١٩٣٢ ، نشر كتابا بعنوان « مصدرا الاخلاق والدين » وفي سنة ١٩٣٤ ، جمع ، في مجلد واحد ، مذكرات له غير منشورة ، ومقالات كانت قد نشرت سابقا ، والكل تحت عنوان « الفكر المتحرك » .

يبدو أن مرض برجسون قد ازداد فحرمه حرية التحرك بالرغم من الاعتناء الزائد الذي كانوا يحيطونه به . ومع هذا فقد دأب على استقبال العلماء ، والزوار ، والشبان ، بحفاوة ولطافة ،

كاتما عن الجميع أوجاعه المتواصلة . وفي الرابع من كانون الثاني سنة ١٩٤١ ميلادية ودع برجسون الحياة نتيجة احتقان رئوي . لم تسمح الظـروف التي كانت سائدة في ذلك الوقت ، وهـي ظروف الحرب ، ولا ارادة برجسون ، لفرنسا بأن تكـرم هذا الفيلسوف الكبير ، فدفن جسده في مقبـرة غارش بجوار فرساي .

كان برجسون من حملة وسام جوقة الشـرف الكبرى ، نال جائزة نوبل الأدبية سنة ١٩٢٨ . انتخب عضوا في المجمع العلمي الخاص بالعلوم منذ سنة ١٩٠١ وعضوا في المجمع العلمي الأدبي سنة ١٩١٤ ، لكنه لم يدخل هذا المجمع ، بالفعل ، الا في سنة ١٩١٨ ميلادية .

آثار برجسون ومؤلفاته :

لم يكن الفيلسوف برجسون غزير الانتاج ، كثير المؤلفات ، وكل ما خلفه بعد وفاته من آثار فكرية لا يتجاوز عددها عشرة كتب فقط ، أمـا المقالات والابحاث التي كان يكتبهـا في المجـلات العلمية ،والتي كان يرسلها الى المؤتمرات الفلسفية،

والى الجمعيات الفلسفية ، بالاضافة الى اسهامه في كتابة بعض المنشورات العلمية كالمقدمات لبعض المؤلفات وغيرها ، لا يمكن تعدادها ، وقد نشر بعضها بعد اجراء بعض التعديلات عليها • ومع كل هذا لا بد من الاشارة الى أهم آثاره الفكرية :

١ ـ منتخبات من لوكراسيوس ، طبع في مطابع ديلاغراف باريس ١٨٨٤ •
٢ ـ محاولة في معطيات الوجدان البديهية طبع في مطابع فرنسا الجامعية ١٨٨٩ •
٣ ـ مادة وذاكرة ـ محاولة في العلاقات بين الجسد والروح ـ طبع عام ١٨٩٦ •
٤ ـ الضحك طبع عام ١٩٠٠ •
٥ ـ التطور الخلاق طبع عام ١٩٠٧ •
٦ ـ الفلسفة مجموعة « العلم الفرنسي » لاروس ١٩١٥ •
٧ ـ الطاقة الروحية طبع سنة ١٩١٩ •
٨ ـ ديمومة ومعية ، لمناسبة نظرية آينشتاين ، ١٩٢٢ •
٩ ـ ينبوعا الاخلاق والدين طبع سنة ١٩٣٢ •
١٠ ـ الفكر المتحرك طبع عام ١٩٣٤ •

ومن أهم مقالاته ، وأبحاثه ، وخطاباته ،

ودروسه ، ما يلي :

١ ــ الاختصاص ، لاشيز ، آنجيه ، ١٨٨٢ ·

٢ ــ الضحـك ، مما يضحـك الناس ؟ ولمـاذا يضحكون ؟ ١٨٨٤ ·

٣ ــ في التهذيـب ، مرشـد بوي دي دوم ، آب ١٨٨٥ ·

٤ ــ في التكليف اللاواعي خلال النوم المغناطيسي المجلة الفلسفية ١٨٨٦ ·

٥ ــ الرشد والدروس الكلاسيكية ، في ايماننـا بناموس السببية وفي مصادر السيكولوجية ، مجلة علم المعقولات ١٩٠٣ ·

٦ ــ مدخل الى علم المعقولات· مجلة علم المعقولات ١٩٠٣ ·

٧ ــ الخطأ في العلاقات القائمة بين علم النفس وعلم الوظائف العضوية، مجلة علم المعقولات ١٩٠٤ ·

٨ ــ لمناسبة تطور الفهم الهندسي ، مجلـة علـم المعقولات ١٩٠٨ ·

٩ ــ مقدمة للصفحات المختارة من كتابـات ج· تارد ، ميشو ، باريس ١٩٠٩ ·

١٠ ــ الحدس الفلسفي ، مجلـة علـم المعقولات

١٩١١ .

١١ ـ ادراك التبدل ، اكسفورد ـ لندن ، ١٩١١ .

١٢ ـ حقيقة وواقع ، مقدمة لترجمة كتاب وليم جيمس ، المذهب العلمي ، فلاماريون ، باريس ، ١٩١١ .

١٣ ـ رسالة الأب دي تونكديك ، دروس ١٩١٢ .

١٤ ـ المادية الحالية فلاماريون ، ١٩١٣ .

١٥ ـ بيان جيوش الجمهورية الرسمي ، ٤ تشرين الثاني ، ١٩١٤ .

١٦ ـ مدلول الحرب ، بلود ، باريس ، ١٩١٥ .

١٧ ـ بعد نظر وجدة ، مؤتمر أوكسفورد ، ١٩٢٠ .

١٨ ـ الازمنة الوهمية والزمن الحقيقي ، المجلة الفلسفية ، ١٩٢٤ .

١٩ ـ فلسفة كلود برنار .

٢٠ ـ المفردات في قاموس لالاند ، ألكان ، مباشر ، غير مدرك ، حدس ، حرية ، عدم .

هنري برجسون والحياة والشعور :

ألقى الفيلسوف هنري برجسون محاضرة في جامعة برمنجهام في شهر أيار سنة ١٩١١ ميلادية

عرفت بمحاضرة هكسلي تحدث فيها عن رأيه في الشعور والحياة ، فقال : « حين تكون المحاضرة مهداة الى ذكرى عالم من العلماء ، فقد يضايق المحاضر اضطراره الى معالجة موضوع كان يمكن أن يعني هذا العالم بعض العناية • ولكن لا أشعر أمام اسم هكسلي بأي حرج من هذا النوع ، بل لعل الصعوبة ههنا ان نعثر على موضوع كان يمكن أن لا يعني هذا العقل الجبار الذي يعد من أوسع ما أنجبت انجلترا خلال القرن الأخير من عقول • ومع ذلك بدا لي أن هذه المسألة الثلاثية ، مسألة الشعور والحياة والعلاقة بينهما ، كان لا بد أن تفرض نفسها أكثر من غيرها على عالم طبيعي كان فيلسوفا •

ولما كنت ، من جهتي لا أعرف بين المسائل مسألة تفوقها شأنا ، فقد وقع عليها اختياري • غير أني حين أقدم على هذه المسألة لا أجرؤ كثيرا أن أعتمد على معونة المذاهب الفلسفية • فان الذي يقلب سواد الناس ويؤرقهم ويعذبهم لا يحتل المكان الأول في تأملات الميتافيزيائيين • من أين جئنا ؟ وما نحن ؟ والى أين المصير ؟ تلكم أسئلة حيوية سرعان ما نواجهها لو كنا نتفلسف دون أن نمر بالمذاهب

الفلسفية . الا أن الفلسفة المفرطة في التمذهب تضع بيننا وبين هذه المسائل مسائل أخرى . فتقول لنا : « ألا يجب عليكم . قبل أن تبحثوا عن الحل ، أن تعرفوا كيف تبحثون عنه ؟ ادرسوا أولا آلية فكركم ، وفندوا (١) معرفتكم ، ثم انقدوا نقدكم ، فاذا تحققتم من قيمة أداتكم، رأيتم أين تستعملونها بعد ذلك . الا أن هذه اللحظة لن تأتي واأسفاه . وما أدري وسيلة لمعرفة المدى الذي نستطيع بلوغه، الا أن نبادر الى الطريق ، ونأخذ بالمير . فاذا كانت المعرفة التي ننشدها مفيدة حقا ، وكان عليها أن توسع فكرنا ، فان كل تحليل تمهيدي لآلية الفكر لن يزيد على أن يبين لنا استحالة الوصول الى مثل هذا المدى ، لأننا نكون قد درسنا فكرنا قبل ذلك التوسع . ان تفكير الفكر في ذاته قبل الأوان ، يثبط العزم عن المضي ، بينا هو اذا أمعن في المسير اقترب من الغاية ، بل أدرك ان الحواجز المذكورة لم يكن معظمها الا سرابا ... ولكن هب الميتافيزيائي لا يدع الفلسفة من أجل النقد ، لا يدع الغاية من أجل الوسائل ، لا يدع الفريسة من أجل الظل ، فانه في

(١) برجسون : الطاقة الروحية ص ٢ .

معظم الأحيان ، حين يصل الى مسألة أصل الانسان وطبيعته ومصيره ، يغض الطرف عن هذه المسألة ، وينتقل الى مسائل يراها أعلى منها ، ويرى أن حل الأولى رهن بها : فيفكر في الوجود بوجه عـام ، ويفكر في الممكن والواقع ، وفي الزمان والمكان ، وفي الروح والمادة ، ثم يهبط بعد ذلك ، درجـة درجة ، الى الشعور والى الحياة اللذين يريد أن ينفذ الى ماهيتهما • ولكن من ذا الذي لا يرى ان هذه التأملات تكون عندئذ مجردة تماما ، وانها لا تتناول الأشياء نفسها ، بل الفكرة البسيطة التي يكونها لنفسه عنها قبل أن يدرسها دراسة تجريبية ، غير ان الذي يحدو بالفيلسوف الى التعلق بمنهج غريب هذه الغرابة هو أنه يرضي غروره ، ويسهل عمله ، ويوهمه بأنه يصل الى معرفة نهائية (١) •

وباعتباره يؤدي الى نظرية عامة جدا ، والى فكرة تكاد تكون فارغة ، فان في امكان الفيلسوف دائما بعد ذلك أن يضع في هذه الفكرة ، بنظرة خلفية ، كل ما تجيء به التجربة ، فيدعي عندئذ انه استبق التجربة بقوة التفكير وحدها ، وأنه شمل مقدما ،

---

(١) برجسون : الطاقة الروحية ص ٤ .

في مهوم واسع ، مفاهيم هي أضيق منه في الواقع ، ولكنها الوحيدة التي يصعب تكوينها ، وينفع الاحتفاظ بها ، ويتم الوصول اليها بتعمق الوقائع ٠

ولما لم يكن ثمة شيء أسهل من التفكير تفكيرا هندسيا حول معاني مجردة ، كان في وسعه أن يبني في غير عناء مذهبا كل شيء فيه متماسك ، يفرض نفسه بقوته وأحكامه ٠ الا أن هذا الاحكام آت من كوننا عملنا في فكرة تخطيطية صلبة ، بدلا من أن نتتبع حواشي الواقع المتثنية المتحركة ٠ أليست أفضل من هذا فلسفة أكثر تواضعا ، تمضي الى الشيء رأسا ، بدون أن تهتم بالمبدأ الذي يبدو ان الشيء متعلق به ٠ ان مثل هذه الفلسفة لن تطمع في اليقين المباشر الذي لا يمكن الا أن يكون موقتا ٠ بل ستتمهل ٠ فتكون صعودا تدريجيا الى النور ٠ تحملها تجربة ما تنفك تتسع ، الى احتمالات ما تنفك تعلو ، متجهة بهذا اليقين النهائي حدا في آخر الأمر ٠

وأني لاعتقد ، من ناحيتي ، أن ليس هناك مبدأ يمكن أن يستخرج منه حل كبريات المسائل استخراجا رياضيا ٠ ولا أرى كذلك واقعة حاسمة

تستطيع أن تقطع في هذه المسألة ، كما هو الشان في الفيزياء والكيمياء · الا أنني ألمح في مناطق مختلفة من ساحة التجربة ، طوائف مختلفة من الوقائع ، لا تؤدي احداها الى المعرفة المنشودة ، ولكن تدل على الاتجاه الذي نجدها فيه · وليس يخلو من قيمة أن يملك المرء اتجاها ما ، فكيف اذا ملك عدة اتجاهات · ان هذه الاتجاهات لا بد أن تلتقي في نقطة ·

وهذه النقطة هي بعينها النقطة التي ننشد · اننا نملك منذ الآن عددا من خطوط الوقائع ، لا تمضي بنا الى المدى الذي نحب ، ولكنا نستطيع أن نمددها بالافتراض · وانما أريد الآن أن أتابع معكم عددا من هذه الخطوط · ان كل خط من هذه الخطوط لا يؤدي بنا (١)، بمفرده،الا الى الاحتمال، ولكنها تفضي بنا ، لتلاقيها ، الى عدد جم من الاحتمالات نشعر معه ، أننا على طريق اليقين · وسنظل نقترب من هذا اليقين باستمرار ، بفضل جهد مشترك تتعاون على القيام به الارادات الطيبة ·

---

(١) برجسون : الطاقة الروحية ص ٥ .

ويعتقد برجسون ان الفلسفة لن تكون بعد اليوم بناء يشيده فرد ، ولا مذهبا فلسفيا يقيمه مفكر ، بل ستحتمل وستقتضي اضافات وتصحيحات وتنقيحات : تتقدم كالعلم الوضعي سواء بسواء ، وتنشأ هي الأخرى بتعاون ·

ويرى برجسون أن الاتجاه الأول الواجب سلوكه متى قلنا روحا فقد قلنا شعورا قبل كل شيء ، فما هو الشعور ؟ لا شك أنكم تقدرون أني لن أحاول تعريف أمر هو على هذه الدرجة من العيان ، وعلى هذه الدرجة من دوام الحضور فيما يعانيه كل منا· ولكني أستطيع ، بدون أن أعرف الشعور تعريفا لا بد أن يكون أغمض منه ، أستطيع أن أميزه بضعة هي أظهر صفاته ، فأقول ان الشعور يعني الذاكرة قبل كل شيء · فلقد يعوز الذاكرة اتساع ، وقد لا تشمل من الماضي الا جزءا يسيرا ، وقد لا تذكر الا الأمور التي وقعت منذ لحظة ، الا أنه اما أن يكون هناك ذاكرة واما أن لا يكون ثمة شعور ، فالشعور الذي لا يذكر من ماضيه شيئا ، وينسى نفسه بغير انقطاع ، يفنى ويحيا في كل لحظة ، وهل يعرف اللاشعور الا بهذا ؟ حين كان « لينبتس » يقول عن المادة أنها « روح آني » كان

يعتبرها ، شاء أم أبى ، غير شاعرة ، فكل شعور اذن ذاكرة ، هو بقاء الماضي في الحاضر ، وتجمعه فيه ·

ولكن كل شعور فهو استباق للمستقبل ·انظروا الى اتجاه فكركم في أي لحظة · انه يهتم بما هو موجود ، ولكنه يهتم به في سبيل ما سيوجد في الدرجة الأولى · ان الانتباه انتظار · ولا يكون شعور بدون شيء من الانتباه الى الحياة ·فالمستقبل موجود : يدعونا اليه ، بل يجرنا جرا · وهذا الجذب المستمر الذي يجعلنا نتقدم في طريق الزمان هو السبب أيضا في أننا نعمل دوما · فكل عمل جور على المستقبل ·

فذكر ما لم يعود موجودا ، واستباق ما لم يوجد بعد ، تلكم هي اذن الوظيفة الأولى للشعور · ولو كان الحاضر لحظة رياضية ، لما كان ثمة حاضر بالنسبة الى الشعور ، ان اللحظة الرياضية حد نظري صرف ، بفعل الماضي عن المستقبل · ولئن أمكن أن نتصور هذا الحد النظري ، فاننا لا نستطيع أن ندركه بحال · فحين يخيل الينا أننا بلغناه ، يكون قد ابتعد عنا ، وانما الذي ندركه بالفعل هو

فترة من الديمومة متألفة مـن قسمين : ماضينـا المباشر ، ومستقبلنا الوشيك • فعلى هذا الماضي نحن متكئون ، وعلى هذا المستقبل نحن منعطفون• فالاتكاء والانعطاف هما خاصة الكائن الشـاعر • فقولوا ، ان شئتم ، ان الشعور هو الصلة بين ما كان وما سيكون ، قولوا انه جسر ملقى بين الماضي والمستقبل • ولكن فيم يفيد هذا الجسر ؟ ومـا الوظيفة التي خلق لها الشعور ؟

لنتساءل ، في سبيل الاجابة على هذا السؤال ، من هي الكائنات الشاعرة ، والى أي مدى من الطبيعة يمتد ميدان الشعور ؟ وما ينبغي أن نتطلب هنا البداهة التامة الصارمة الرياضية • والا لم نحصل على شيء • اذ حتى نعلم علم اليقين ان كائنا ما شاعر • لا بد أن ننفذ فيه ، ونتحد معه ، ونكون اياه ، واني لاتحداكم أن تستطيعوا أن تبرهنوا لي ، بالتجربة أو بالاستدلال ، على أني ، أنا الذي أتحدث اليكم الآن ، كائن شاعر ، فقد لا أكون الا آلة صنعتها الطبيعة في براعة وحذق ، وجعلتهـا تذهب وتجيء وتلقي محاضرات ، حتى الكلمات التي أعلن بها أنني شاعر قد تكون ملفوظة علـى نحو غير شعوري • ولكن لا شك أنكم تعترفون ان

هذا غير محتمل ، ان لم يكن مستحيلا • ان بيني وبينكم تشابها خارجيا بديهيا ، ومن وجود هـذا التشابه الخارجي تستنتجون وجود تشابه داخلي • ولئن كان البرهان المستند الى التشابه لا يؤدي الى غير الاحتمال ، فقد يعلو الاحتمال في كثير مـن الحالات الى حيث يعدل اليقين عمليا • فلنتبع اذن دليل التشابه • ولنبحث الى أين يمتد الشعور وأين يقف ؟ يقولون أحيانا : ان الشعور مرتبط عندنا بدماغ • فيجب أن نسند الشعور الى الكائنـات الحية التي لها دماغ ، وأن ننكره على من عداها • ولكنكم سرعان ما تدركون فساد هذا الدليل • فلو صح أن نبرهن على هذا النحو ، لجاز أن نقول : ان الهضم مرتبط عندنا بمعدة • واذن فالكائنـات الحية التي لها معدة تهضم ، وكل من عداهـا لا يهضم ، وهذا خطأ فادح • اذ ليس من الضروري أن يكون للكائن الحي معدة ، بل ولا أعضاء ، حتى يهضم • ان الأميب يهضم مع أنه ليس الا كتلـة هيولية لا تكاد تتميز • ولكن كلما تعقد الكائـن الحي وتكامل ، توزع العمل ، فأصبح للوظائـف المختلفة أعضاء مختلفة ، وتركزت وظيفة الهضم في المعدة أو قل بصورة أعم ، في جهاز هضمي يتحسن

عندئذ قيامه بعمله ، اذ لا يكون عليه أن يقوم بعمل غيره • فكذلك يمكننا القول أن الشعور مرتبط لدى الانسان بدماغ ولا شك ، ولكن ليس يتبع هذا ان الدماغ شيء لا بد منه للشعور • واذا هبطنا على سلم السلسلة الحيوانية ، رأينا المراكز العصبية تتبسط ، وينفصل بعضها عن بعض ، ثم رأينا العناصر العصبية أخيرا تختفي ، وتغرق في كتلة جسمية قليلة التميز • أفلا يجب أن نفترض اذن أن الشعور الذي يكون في قمة الكائنات الحية مرتبطا بمراكز عصبية عظيمة التعقد ، يصاحب الجملة العصبية في هبوطها ، وأنه ، حيث تذوب المادة العصبية في مادة حية غير متميزة ، يتبعثر ويغمص ويقل (١) ، ولكنه لا يزول زوالا تاما ؟ نستطيع أن نقول اذن : لعل كل كائن حي شاعر ، والشعور ، مبدئيا ، ملازم للحياة • ولكن هل هو كذلك واقعيا ؟ ألا يتفق أن يغفو أو أن يزول ؟ هذا محتمل •

ويلتفت برجسون بعد هذا التحليل الرائع الى خط آخر من خطوط الوقائع الذي يفضي الى أن

---

(١) برجسون : الطاقة الروحية ص ٨ .

الشعور في الكائن الحي الـذي نعرفه أكثر مـن غيره ، يعمل بواسطة دماغ فلا بد لنا اذن من القاء نظرة عابرة على الدماغ الانساني ، لنلاحظ كيف يعمل : « ان الدماغ جزء من جملة عصبية تحتوي ، عدا الدماغ نفسه ، على نخاع وأعصاب وغـير ذلك • وفي النخاع أجهزة معبأة يحتوي كل منهـا على فعل معين معقد ، مستعد لأن ينطلق ، يحققه الجسم متى شاء ، كتلك الاسطوانات الورقية المثقبة التي يجهزون بها البيانو الميكانيكـي ، فتحـدد ، مقدما ، الالحان التي ستعزفها الآلة • ان كل جهاز من هذه الأجهزة يمكن أن يتحرك مباشرة بتأثـير سبب خارجي ، فيحقق الجسم على الفور مجموعة من الحركات المتوافقـة ، ردا على التنبيه الـذي تلقاه • الا أن هناك حالات لا يحصل فيها المنبـه الخارجي ، من الجسم ، على استجابة مباشرة معقدة بعض التعقيد باتجاهه الى النخاع رأسا ، بل يصعد أولا الى الدماغ ، ثم يهبط منه ، ولا يعمل جهاز النخاع الا بعد أن يكون قد اتخذ الدماغ وسيطا • فلماذا هذه الدورة ؟ وما لزوم تدخل الدمـاغ ؟ اننا نحرر ذلك في غير عناء اذا نحن نظرنا الى البنية العامة للجملة العصبية » •

ويشير برجسون الى أن الدماغ على اتصال دائم بأجهزة النخاع عامة ، وليست بهذا الجهاز أو ذاك منها فحسب • كونه يتلقى أيضا منبهات من كل نوع ، لا هذا أو ذاك من المنبهات فحسب ، فهو على هذه الصورة ليس سوى مفترق طرق ، يستطيع فيه الاهتزاز القادم من أي طريق حسي ، أن يدخل في أي طريق حركي •

لا شك أن الدماغ حسب رأي برجسون سوى موزع يقذف بالتيار القادم من نقطة (١) من الجسم الى جهاز حركي ينتخب بارادة • « واذن فقد اتضح ان ما يطلبه المؤثر من الدماغ حين يدور هذه الدورة انما هو تشغيل جهاز حركي ينتخب انتخابا، لا يخضع له خضوعا • ان النخاع يحتوي على عدد كبير من الأجوبة الجاهزة ، يرد بها على السؤال الذي يمكن أن تطرحه الظروف • وتدخل الدماغ يكون باختيار جواب من هذه الأجوبة هو أنسبها • فالدماغ اذن عضو اختيار » •

وفي مفهوم برجسون أنه كلما هبطنا على سلم

---

(١) برجسون : الطاقة الروحية ص ٩ .

السلسلة الحيوانية لاحظنا الانفصال بين وظائف النخاع ووظائف الدماغ يقل وضوحا ، وشاهدنا وظيفة الاختيار التي تكون في أول الامر مركزة في الدماغ تمتد تدريجيا الى النخاع الذي يكون عددا من الاجهزة أقل ويعبئها في دقة أقل أيضا · « حتى اذا وصلنا أخيرا الى حيث الجملة العصبية بدائية ، ومن باب أولى الى حيث لا يبقى عناصر عصبية متميزة ، رأينا الاختيار والآلية مختلطين ، ورأينا رد الفعل بسيطا حتى ليظهر شبه آلي · الا أنه يظل مع ذلك يتردد ويتلمس ، كما لو كان اراديا · فالأميب الذي أشرنا اليه منذ لحظة اذا وجد أمام مادة يمكن أن يتغذى منها مد اليها استطالات قادرة على أن تمسك بالأجسام الغريبة ، وأن تحيط بها · فهذه الأرجل الكاذبة أعضاء حقيقية ، ولكنها أعضاء وقتية خلقت للظرف الراهن ، ويتجلى فيها على ما يبدو شيء أولي من الاختيار ·

والخلاصة اننا اذا هبطنا من أعلى الحياة الحيوانية الى أدناها وجدنا وظيفة الاختيار ، أي وظيفة الرد على منبه معين بحركات لا يتنبأ بها ، تظل تقوم بعملها ولو في صورة ما تنفك تغمض كلما هبطنا الى أدنى · ذلكم ما نجده على خط

الوقائع الثاني . وبهذا تكتمل النتيجة التي وصلنا اليها أولا . لأنه اذا كان الشعور ، كما ذكرنا ، يحفظ الماضي ويستبق الحاضر ، فما ذلك الا لأنه مكلف باختيار . فلكي نختار يجب أن نفكر فيما يمكن أن نفعل ، ويجب أن نتذكر النتائج المفيدة أو المضرة لما فعلنا من قبل ، أي يجب أن نتنبأ وأن نتذكر . ولكن نتيجتنا ، اذ تكتمل ، تقدم لنا ، من جهة أخرى ، جوابا ممكنا على السؤال الذي طرحناه ، وهو : هل كل الكائنات الحية شاعرة ، أم أن الشعور لا يشمل الا جزءا من ميدان الحياة ؟ (١) » .

واذا كان الفلاسفة الذين فكروا في مفهوم الحياة ومصير الانسان لم يلمسوا أن الطبيعة نفسها تولت افادتنا في هذه الأمور ، فلا بد أن تعرفنا بعلامة واضحة اننا قد بلغنا مصيرنا . وهذه العلامة هي الفرح ، وليست اللذة . لأن اللذة ليست سوى حيلة ابتدعتها الطبيعة لتحصل من الكائن الحي على بقاء الحياة ، وهي لا تشير الى الاتجاه الذي اندفعت فيه الحياة . أما الفرح فهو يشير دائما بأن الحياة

(١) برجسون : الطاقة الروحية ص ١٠ .

قد نجحت ، واتسعت مدى ، ونالت الانتصار • ان في كل فرح كبير لرنة من الانتصار • فاذا استرشدنا هذه العلامة ، كما يرى برجسون ، واتبعنا هذا الخط الجديد من خطوط الوقائع وجدنا أنه حيثما يكن فرح يكن خلق ، وعلى قدر غنى الخلق يكون عمق الفرح •• أما الفرح الحقيقي الذي يذوقه الانسان ، فهو الشعور بأنه أنشأ مشروعا لا يزال يتحرك ، انه دعا الى الحياة شيئا جديدا •

برجسون والجهد العقلي :

يعالج برجسون قضية الجهد العقلي منطلقا من مجموعة التصورات المعقدة التي تشغل تفكيرنا اليومي ، بسبب توتر الاعصاب أحيانا ، والارتخاء والكسل أحيانا آخرى ، ثم يستفسر اذا كانت حركة التصورات واحدة في الحالين ؟ وهل العناصر من نوع واحد ، وهل العلاقات بينها واحدة ؟ « ألا نستطيع أن نجد في التصور نفسه ، وفي الاستجابات الداخلية التي يحققها ، وفي شكل الحالات البسيطة التي يتألف منها وفي حركتها وتجمعها ، كل ما هو ضروري للتمييز بين الفكر الذي يرخي لنفسه العنان ، وبين الفكر الذي يتركز ويقوم بجهد ؟

ألا يدخل في شعورنا بهذا الجهد شعورنا بأن التصورات تتحرك حركة خاصة ؟ تلكم هي الأسئلة التي نريد طرحها ، وهي ترتد جميعا الى سؤال واحد : ما هو المميز العقلي للجهد العقلي ؟ وكائنا ما كان الجواب الذي نحل به هذه المسألة ، فاننا ، كما قلنا ، لا نكون تعرضنا لمسألة الانتباه على نحو ما يطرحها علماء النفس المعاصرون • فعلماء النفس قد عنوا خاصة بالانتباه الحسي ، أي بالانتباه الى ادراك بسيط • واذن الادراك البسيط المصحوب بانتباه ادراك يمكن في ظروف ملائمة أن لا يتغير مضمونه حين لا يصحبه انتباه ، فقد بحثوا هنا عن الصفة النوعية للانتباه في خارج هذا المضمون (١) • حتى ان الفكرة التي عرضها ريبو ، والتي تعزو قيمة حاسمة للحوادث الحركية المصاحبة ، ولأفعال التوقف خاصة ، كادت تصبح كلاسيكية في علم النفس •

ولكن كلما تعقدت حالة التركيز العقلي اشتد التلازم بينها وبين الجهد الذي يصحبها • فثمة

---

(١) برجسون : الطاقة الروحية ض (١٤٠–١٤١) •

أعمال فكرية لا نستطيع أن نتصور أن تتحقق في يسر وسهولة » .

ولما كان برجسون قد ميز سلسلة من « مستويات الشعور » المختلفة ، ابتداء من « الذكرى المحضة » التي يعبر عنها بعد بصور متميزة ، الى هذه الذكرى نفسها وقد صارت فعلية باحساسات ناشئة وحركات مبدوءة . فقد ذهب الى أن الاستحضار الارادي لذكرى من الذكريات يكون باجتياز مستويات الشعور هذه واحدا بعد آخر ، في اتجاه معين . ولكي يعطينا فكرة صحيحة عن سهولة تذكر ذكرى معقدة متناسبة تناسبا طرديا مع ميل عناصرها الى أن تعرض على مستوى شعوري واحد يقول : « والواقع ان كلامنا قد لاحظ هذه الملاحظة على نفسه ، فنحن نلاحظ حين نحاول أن نتذكر قصيدة من الشعر كنا حفظناها في المدرسة ان الكلمة تستدعي الكلمة ، وان التفكير في المعنى يعوق التذكر بدلا من أن يسهله (١) .

وقد تكون الذكريات في هذه الحالة سمعية أو

(١) برجسون : الطاقة الروحية ص ١٤٥ .

بصرية ، الا أنها دائما تكون في الوقت نفسه حركية أيضا • حتى ليصعب أن نميز ما هو ذكرى سمعية مما هو عادة تلفظية • فاذا توقفنا عن التلاوة قبل تمامها ، فان شعورنا « بعدم التمام » يظهر لنا راجعا طورا الى أن باقي القصيدة ما يزال ينشد في الذاكرة ، وطورا الى أن حركة النطق لم تبلغ نهاية اندفاعتها وتريد أن تستنفذ الاندفاعية كلها • وطورا ، وهذا هو الأغلب ، الى كلا الامرين معا • ولكن يجب أن نلاحظ ان هاتين الطائفتين من الذكريات ـ الذكريات السمعية والذكريات الحركية ـ هما من مرتبة واحدة • فهما عيانيتان بدرجة واحدة ، وقريبتان من الاحساس بدرجة واحدة ، فهما اذن في « مستوى شعوري » واحد •

وبعد أن يؤكد برجسون ان الفكر يتحرك من مستوى الى مستوى آخر يلاحظ أنه لا شك بأن التذكر يقتضي وقتا أطول ، ولكن الاستظهار يقتضي وقتا أقصر • وتحسن الذاكرة ، كما لوحظ ذلك كثيرا ، لا يكون في نمو القدرة على الحفظ بقدر ما يكون في ازدياد البراعة في التقسيم والترتيب وربط المعاني بعضها ببعض •

ومما يذكره وليم جيمس (١) حول الواعظ الذي جرب أن يحفظ خطبته ، فقضى في أول الامر ثلاثة أيام أو أربعة وهو يرددها ، ثم اكتفى فيما بعد بيومين • واصبح بعد مدة أخرى يكتفي بيوم واحد ، وفي آخر الأمر صار يكفيه أن يقرأ الخطبة مرة واحدة منتبهة تحليلية • ولم يكن هذا التقدم بالنسبة للواعظ الا ازديادا في القدرة على توجيه كل المعاني ، وكل الصور ، وكل الكلمات ، نحو نقطة واحدة (٢) •

ويتساءل برجسون عن ماهيـة هذه النقطـة الواحدة ؟ وكيف يمكن أن تقيم صور كثيرة متنوعة في تصور واحد بسيط ؟ ويذهب الى أنه بالامكان اطلاق اسما على التصور البسيط الذي بمقدوره أن ينتشر صورا متعددة ، فندعوه باسم « المخطط الحركي » وهذا يعني أن التصور لا يحتوي على الصور نفسها بقدر ما يحتوي على اشارة الى ما يجب عمله حتى نعيد تأليفها • فليس هو خلاصة للصور نحصل عليها بافقار كل من هذه الصور •

---

(١) وليم جيمس: مبادىء علم النفس جا ص ٦٦٧ الحاشية.
(٢) برجسون : الطاقة الروحية ص ١٤٧ .

والا ما استطاع أن يذكرنا بالصور كاملة • ولا هو التصور المجرد لما يعنيه مجموع الصور •

وفي رأي برجسون من الصعب تعريف ما تئول اليه فكرة معنى الصور هذه اذا هي عزلت عزلا تاما عن الصور نفسها ، فان من الواضح ان المعنى المنطقي الواحد يمكن أن (١) ينتسب الى سلاسل في الصور مختلفة بعضها عن بعض كل الاختلاف ، وانه لا يكفي ، وفقا لذلك ، لأن يجعلنا نحفظ ونؤلف من جديد سلسلة بعينها من الصور دون ما عداها •

ومما لا شك فيه ان جوهر الجهد التذكري بمفهوم برجسون هو أن ينشر المخطط ـ وهذا المخطط ان لم يكن بسيطا فهو على الاقل مركز ـ صورة تميزت عناصرها واستقلت بعضها عن بعض كثيرا أو قليلا • فحين ندع الذاكرة تطوف على غير هدى ، بلا جهد ، فان الصور تعقب الصور ، وكلها في مستوى شعوري واحد • أما حين نبذل جهدا ، فاننا ننتقل الى مستوى أعلى ، ثم نهبط

---

(١) برجسون : الطاقة الروحية ص ١٤٨ .

شيئا بعد شيء نحو الصور التي علينا أن نتذكرها. فاذا كنا في الحالة الأولى ، اذ نجمع صورا الى صور ، نتحرك حركة ندعوها مثلا حركة أفقية على مستوى واحد . فقد وجب أن نقول ان الحركة في الحالة الثانية حركة عمودية وانها تنقلنا من مستوى الى مستوى آخر ... ان الصـور في الحالـة الأولى متجانسة فيما بينها ، ولكنها تمثل أشياء مختلفة . أما في الحالة الثانية فان الشيء الممثل في جميـع لحظات العملية شيء واحد بعينه ، ولكنه ممثـل بأشياء مختلفة ، بحالات عقلية غير متجانسة ، فتارة بمخططات ، وتارة بصور ، والمخطط ينحدر نحو الصورة كلما اشتدت حركة الهبوط . وكل منـا يشعر أن العملية تتم امتدادا وسطحا في الحالـة الأولى ، واشتدادا وعمقا في الحالة الثانية (١) .

ويلخص برجسون هذه الافكار التحليلية قائلا : « ان جهد التذكر يقوم على قلـب (٢) تصـور تخطيطي ، متداخل الاجزاء ، الى تصور ذي صور توضع أجزاؤه بعضها الى جانب بعض » . وبعد،

---

(١) برجسون : الطاقة الروحية ص ١٥٢ .
(٢) المصدر نفسه ص ١٥٣ .

هذا التلخيص يذهب برجسون الى دراسة جهد الفهم بصورة عامة ، أعني الجهد الذي نبذله حتى نفهم وحتى نؤول • فيقول : « لما كان فعل الفهم يتم بغير انقطاع ، فان من الصعب أن نقول أين يبدأ جهد الفهم هنا وأين ينتهي ؟ على أن هنالك طريقة في الفهم والتفكير تستبعد الجهد ، كما أن هناك طريقة أخرى ، ان كانت لا تتضمنه بالضرورة ، فانها تلاحظ على وجه العموم حيثما يكن الجهد •

أما الفهم الأول فيبدو في كوننا ، اذ ندرك ادراكا معقدا بعض التعقيد ، نرد على هذا الادراك بفعل مناسب ردا آليا • هل تعرف شيء يستعمل الا معرفة استعمال هذا الشيء ؟ وهل معرفة استعمال هذا الشيء الا أن نخطط بصورة آلية ، اذ ندركه ، الفعل الذي ربطته العادة بهذا الادراك ؟ تعلمون أن الملاحظين الأول ، كانوا يطلقون اسم ابراكسيا على العمى المادي • وهذا معناه أن العجز عن تعرف الاشياء التي تستعمل هو بالدرجة الأولى عجز عن استعمالها • على ان هذا الفهم الآلي يمتد الى أبعد بكثير مما يظنون • ان

المحادثة الدارجة تتألف ، في قسم (١) كبير منها من اجابات جاهزة على أسئلة تافهة ، فيعقب الجواب السؤال من غير أن يعني العقل بمعنى السؤال ولا بمعنى الجواب • وعلى هذا النحو يستطيع خرفان أن يتحدثا في موضوع بسيط حديثا يكاد يكـون منسجما رغم أنهما أصبحا لا يعرفان ما يقولان • وقد لوحظ غير مرة أننا نستطيع أن نربط كلمات بكلمات على أساس التوافق أو عدم التوافق بين الأصوات (توافقا موسيقيا ان جاز التعبير) ، وان نؤلف على هذا النحو جملا مترابطة ، بدون أن يتدخل العقل (بالمعنى الاصلي للكلمـة) في ذلك • فتأويل الاحساسات في هذه الأمثلة يتم حالا بحركات ، ويبقى الفكر ، كما قلنا ، في « مستوى شعوري » واحد بعينه •

ولا كذلك الفهم الحقيقي • فانه يكون بحركة من الفكر تتردد بين الادراكات أو الصور من جهة ، وبين معناها من جهة أخرى • فما هـو الاتجـاه الأساسي لهذه الحركة ؟ لقد يخيل الينا لأول وهلة أننا نبدأ ها هنا بالصور ، ثم نصعد منها الى معناها،

(١) برجسون الطاقة الروحية ص ١٥٤ .

لأن الصور هي التي ندركها أولا ، وان الفهم انما هو ، على الجملة ، تأويل ادراكــات أو صور • فسواء أكنا نتابع برهانا • أم نطالع كتابا • أم نسمع خطابا • فالذي يتقدم الى العقل انما هو ادراكات أو صور • يترجمها العقل الى علاقات ، كما لو كان عليه أن ينتقل من العيان الى التجريد • ولكن هذا من الأمر ظاهره • ومن السهــل أن نرى أن الفكر في عمل التأويل يسير في عكس هذا الاتجاه (١) •

وعندما يصل برجسون في تحليله الى أن الشعور بجهد الفهم يحصل في الطريق من المخطط الــى الصورة • يلاحظ أنه لا بد من أن نتحقق من هذا القانون في الصورة العليا من الجهد العقلي ، أعني في جهد الاختراع • لأن الخلق بالخيال هو حــل لمسألة كما يرى ريبو (٢) • فهل نحل مسألة الا بأن نفترضها محلولة ؟ قال ريبو : اننا نتخيل أولا مثلا أعلى أي نتيجة حاصلة ، ونحاول بعدئذ أن نعرف بأي تركيب من العناصر نصل الى هذه النتيجة •

---

(١) برجسون : الطاقة الروحية ص ١٥٥ .
(٢) ريبو : الخيال الخالق ص ١٣ .

فنحن ننتقل في قفزة واحدة الى النتيجة الكاملة أي الى الغاية التي علينا أن نحققها : وجهد الابداع كله يكون بعدئذ في ملء المسافة التي قفزنا فوقها ، والوصول الى هذه الغاية مرة أخرى ، لا بالقفز في هذه المرة ، بل باتباع سلسلة الوسائل المتصلة التي تحقق لنا هذه الغاية • وكيف ندرك الغاية بدون الوسائل ، وكيف ندرك الكل بدون الاجزاء ؟ ان هذا لا يمكن أن يكون بصورة ، لأن الصورة التي ترينا النتيجة وهي تتحقق ترينا في داخل هذه الصورة نفسها الوسائل التي تحصل بها هذه النتيجة • فلا بد اذن أن نسلم أننا نتخيل المجموع في شكل مخطط ، وأن الاختراع انما هو قلب المخطط الى صورة • ان المخترع الذي يريد أن يوجد آلة ما يتخيل النتيجة التي يجب أن يحصل عليها • والصورة المجردة لهذه النتيجة تبعث في ذهنه ، تباعا ، بالتلمس والتجريب ، الصورة العيانية لمختلف الحركات المؤلفة التي تحقق الحركة الكلية ، ثم الصور العيانية للقطع ومركبات القطع القادرة على أن تقوم بهذه الحركات الجزئية • وفي هذه اللحظة يكون الاختراع قد تم ، وانقلب التصور التخطيطي الى تصور ذي صور • والكاتب

الذي يكتب رواية ، والمؤلف الدرامي الذي يخلق شخصيات وظروفا ، والموسيقي الذي يؤلف لحنا ، والشاعر الذي ينظم قصيدة ، كل أولئك يقوم في ذهنهم أول ما يقوم شيء بسيط مجرد ، ليس بذي جسم ، هو بالنسبة للموسيقي والشاعر عاطفة جديدة يجب أن تنتشر أصواتا أو صورا ، وهو بالنسبة للروائي والدرامي فكرة يجب أن تنتشر في حوادث ، وعاطفة فردية أو اجتماعية يجب أن تتجسد في شخصيات حية • فتراهم يعملون في مخطط للمجموع ، فمتى وصلوا الى صورة واضحة للعناصر حصلت النتيجة (١) •

وقد بين بولان (٢) في أمثلة شائقة جدا كيف أن الخلق الأدبي والشعري ، يمضي من « المجرد الى العياني » أي على وجه الاجمال ، من الكل الى الأجزاء ، من المخطط الى الصورة •

على أنه من المستبعد أن يظل المخطط ساكنا خلال العملية ، فانه ليتغير بالصور نفسها التي

---

(١) برجسون : الطاقة الروحية ص ١٦٠ .
(٢) بولان : سيكولوجية الابتكار الفصل ٤ .

يحاول أن يمتليء بها • حتى ليتفق أن لا يبقى في الصورة النهائية شيء من المخطط الأصلي • فكلما تقدم المخترع في تحقيق تفصيلات الآلة ، عدل عن جزء مما كان يريد الحصول عليه منه ، أو حصل منه على شيء آخر • وكذلك الشخصيات التي يخلقها الروائي أو الشاعر ، فانها تعود فتؤثر في الفكرة أو العاطفة اللتين وجدت لتعبر عنهما • وهذا هو خاصة الجانب الذي لا يتنبأ به • انه ارتداد الصورة الى المخطط تبدله أو تزيله • الا أن الجهد ، بالمعنى الأصلي للكلمة • يكون بالمضي عن المخطط ، ثابتا كان أم متغيرا ، الى الصور التي يجب أن تملأه • ومن المستبعد كذلك أن يسبق المخطط الصورة سبقا صريحا دائما •

لقد بين ريبو أنه يجب أن نميز بين شكلين من التخيل المبدع : التخيل الحدسي ، والتخيل الواعي • « فأما الأول فيمضي من الوحدة (١) الى التفاصيل •• وأما الثاني فيسير من التفاصيل الى وحدة يستشفها بغموض • انه يبدأ بجزء يكون بمثابة بداية تتكامل شيئا بعد شيء ••• لقد وقف كبلر

(١) ريبو : سيكولوجية الابتكار ص ١٣٢ .

جزءا من حياته على تجريب فروض غريبة الى أن أتى ذلك اليوم الذي اكتشف فيه مـدار المريـخ الاهليلجي ، فتجسد عندئذ كل عمله السابـق ، وانتظم في مذهب » ومعنى هذا أنه بدلا من مخطط وحيد • ذي أشكال ثابتة نتصور مفهومه المتميـز على النور ، يمكن أن يوجد مخطط مرن أو متحرك لا يرضى الفكر أن يجمد أطرافه ، بـل ينتظـر القرار مـن نفس الصور التـي على المخطط أن يستدعيها حتى يتجسد • على أنـه سواء أكـان المخطط ثابتا أم متحركا ، فالجهد العقلي انما يظهر أثناء تنشر المخطط في صور •

ويلاحظ برجسون نتيجة لهذا التحليل أننا اذا حاولنا جمع هذه النتائج الى النتائج السابقة توصلنا بلا شك الى الحركة العقلية التي يمكن أن تصحب بشعور بالجهد في بعض الحالات ، لذا يمكننا أن نقول : ان العمل العقلي هو السير بتصور وحيد ، خلال مستويات شعورية مختلفة ، في اتجاه يمضي من المجرد الى العياني ، من المخطط الى الصورة ، لذلك يبقى علينا أن نعرف ما هي الحالات الخاصة التي تشعرنا فيها هذه الحركة الفكريـة اشعارا واضحا بجهد عقلي (ولعل هذه الحركة تنطـوي

دائما على شعور بالجهد • الا أن هذا الشعور يكون أحيانا من الضعف أو من طول الألفة بحيث لا يُدرك ادراكا متميزا ((١)) •

ومن الطبيعي أن يستمر برجسون في تحليله لهذه النقطة فيقدم الأمثلة ويطرح الأسئلة التي يجيب عليها بوضوح معتمدا على آراء وأفكار بعض رجال العلم والفلسفة أمثال ديوي وغيره ، ثم يصل أخيرا الى القول : « من السهل أن أعترف بأن الانفعال الذي نشعر به في الانتباه والتفكير والجهد العقلي بوجه عام ، يمكن أن ينحل الى احساسات محيطية • ولكن ليس يتبع هذا ان « حركة التصورات » التي رأيناها مميزا للجهد العقلي لم نشعر بها هي نفسها في هذا الانفعال • ولعله يكفي أن نقول ان حركة الاحساسات جواب لحركة التصورات ، أو أنها ان صح التعبير صدى لها على مستوى آخر • وهذا سهل فهمه ، لا سيما وان الامر هنا ليس أمر تصور بل حركة تصورات، بل نزاع أو تداخل بين التصورات • من الممكن أن نفهم أن يكون لهذه الذبذبات العقلية مرافقات

(١) برجسون : الطاقة الروحية ص ١٦٢ .

حسية • من الممكن أن نفهم أن يتبع تردد العقل هذا قلق من الجسم • فتكون الاحساسات المميزة تعبيرا عن هذا التوقف نفسه ، وعن هذا القلق ذاته • ألا يمكن أن نقول بوجه عام ان الاحساسات المحيطية التي يكشف عنها التحليل في انفعال ما هي رموز الى التصورات التي يرتبط بها هذا الانفعال ويشتق منها ؟ اننا نميل الى تمثيل أفكارنا بحركات في الخارج ، وشعورنا بهذا التمثيل وهو يتحقق يرتد الى الفكر في نوع من الوثوب ، فينشأ عن ذلك هذا الانفعال الذي مركزه عادة تصور ، ولكننا نرى منه على وجه الخصوص الاحساسات التي كانت امتدادا لهذا التصور • هذا الى أن الاحساسات والتصور متصلان اتصالا كاملا بحيث لا نستطيع أن نقول أين ينتهي (١) التصور وأين تبدأ الاحساسات ، ولذلك فان الشعور يأخذ المتوسط فيجعل من الانفعال حالة فريدة في نوعها هي وسط بين الاحساس والتصور • ولكن فلنقتصر على القاء هذه النظرة بدون أن نقف عندها طويلا • فان المسألة التي نطرحها هنا لا يمكن أن تحل حلا شافيا في حالة علم النفس الراهنة •

---

(١) برجسون : الطاقة الروحية ص ١٦٨ .

ويبقى علينا أخيرا أن نبين أن هذا المفهوم للجهد العقلي يفسر النتائج الرئيسية للعمل العقلي . وأنه في الوقت نفسه أقرب المفاهيم الى ملاحظة الوقائع ملاحظة صافية بسيطة ، وأبعدها عن أن يكون نظرية من النظريات » .

وفي نهاية مطاف برجسون في تأثير المخطط في الصورة وتأثير الصورة في الصورة يرى الى جانب تأثير الصورة في الصورة أن هناك جذب ودفع يحدثهما المخطط في الصور (١) . الى جانب انتشار الفكر على مستوى واحد ، سطحا ، هنالك الحركة الفكرية التي تمضي من مستوى الى مستوى ، عمقا . الى جانب آلية التداعي هنالك آلية الجهد العقلي . والقوى التي تعمل في الحالتين لا تختلف في الشدة فحسب ، بل في الاتجاه أيضا . أما أن نعرف كيف تعمل ، فهذا سؤال ليس من شأن علم النفس وحده ، بل يرتبط بمسألة السببية ، هذه المسألة العامة الميتافيزيائية . بين الدفع والجذب ، بين العلة الفاعلة والعلة الغائية ، هناك فيما اعتقد شيء وسيط ، ضرب من النشاط استخرج منه الفلاسفة ،

---

(١) برجسون : الطاقة الروحية ص ١٦٨ .

عن طريق الافقار والفصل ، وبالمرور بالحديث المتعارضين الاقصيين ، فكرة العلة الفاعلة من جهة، وفكرة العلة الغائية من جهة أخرى • ان قوام هذه العملية ، التي هي عملية الحياة نفسها ، انتقال تدريجي من الأقل تحققا الى الأكثر تحققا ، من المنطوي الى المنتشر ، من التضمن المتبادل بين الاجزاء ، الى تراصف هذه الاجزاء • ان الجهد العقلي شيء من هذا النوع ، ونحن اذا حللناه ، فقد أحطنا ما وسعتنا الاحاطة ، في هذا المثال الذي هو أكثر الامثلة تجريدا وبالتالي أكثرها بساطة ، أحطنا بذلك الضرب من جعل اللامادي ماديا أكثر فأكثر ، الأمر الذي به يتميز نشاط الحياة •

برجسون والدماغ والفكر :

عالج الفيلسوف برجسون مشكلة التعادل بين الحالة النفسية والحالة الدماغية التي تقابلها ، باسلوبه العلمي التحليلي الدقيق ، فقدم البراهين التحليلية الهادفة الى اثبات أفكاره ، معتمدا على الأدلة المقنعة ، والأمثلة الصائبة ، بعد أن توضح له أن آراء العلماء الذين تناقشوا حول أسباب هذا التعادل ودلالته أكثر مما يتناقشون حول التعادل

نفسه ، حيث يرى بعضهم أنه يعود الى الحالة الدماغية تزدوج هي نفسها في بعض الحالات باشعاع نفسي ينيرها • ويرى بعض آخر أنه ناتج عن كون الحالة الدماغية والحالة النفسية داخلتين في سلسلتين من الوقائع متقابلتين • نقطة نقطة • من غير أن يكون ثمة ضرورة لاعتبار الأولى خالقة للثانية • ولكن هؤلاء وأولئك يسلمون بالتعادل أو بالموازاة بين السلسلتين على حد تعبيرهم في أغلب الأحيان •

ويعمد برجسون من جانبه الى تحديد هذه الفكرة فيقول : « اذا وجدت حالة دماغية معينة تبعتها حالة نفسية معينة • أو : ان في وسع العقل ، لو أوتي قدرة فوق قدرة العقل (١) الانساني ، فشهد حركات الذرات التي يتألف منها دماغ الانسان ، وكان يملك معجما يترجم الحالات الفزيولوجية الى الحالات النفسية • ان في وسع هذا العقل أن يقرأ في الدماغ ابان عمله كل ما يجري في الشعور المقابل • أو أيضا : ان الشعور لا يقول شيئا غير

---

(١) برجسون : الطاقة الروحية ص ١٧٤ .

ما يجري في الدماغ • كل ما هنالك أنه يعبر عنه بلغة أخرى » •

ويبين لنا برجسون أن جذور هذه النظرية هي أصول ميتافيزيائية ، كونها مشتقة من الفلسفة الديكارتية وفق خط مستقيم ، تضمنتها فلسفة ديكارت، فاستخلصها خلفاؤه وذهبوا بها الى أقصاها، ثم انتقلت عن طريق الأطباء الفلاسفة في القرن الثامن عشر الى علم النفس الفيزيولوجي في عصرنا الحاضر •

ومن السهل أن نفهم لماذا قبلها الفيزيولوجيون من غير تحليل أو نقاش • فانهم أولا لم يقارنوا بينها وبين غيرها ، لأن المشكلة أتت اليهم من الفلسفة ، والفلاسفة لم يقدموا لهم حلا آخر • ثم أنه كان من مصلحة الفيزيولوجيا أن تشايع هذا الرأي ، وأن تعمل كما لو كان عليها في يوم من الأيام أن تبرز لنا الترجمة الفيزيولوجية الكاملة للنشاط النفسي - فبهذا الشرط وحده انما كانت تستطيع أن تتقدم الى أمام ، وأن توغل في تحليل الشروط الفيزيولوجية للفكر ايغالا ما ينفك يزداد • وكان ذلك ــ ولعله ما يزال ــ مبدأ عظيما

للبحث : يجب أن لا نتعجل فنرسم للفيزيولوجيا حدودا ما يجوز أن تتعداها ، لا ولا لأي بحث علمي آخر • ولكن شتان بين هذا المبدأ و بين أن نقرر تقريرا مذهبيا وجود موازاة نفسية فيزيولوجية • فهذا فرضية فلسفية ، لا قاعدة علمية ، انه ، في الحدود التي يمكن أن يعقل ضمنها ، فلسفة لعلم محدود بحدود رياضية صرفة ، أي للعلم على نحو ما كان يفهم في عصر ديكارت •

وفي اعتقادنا أننا اذا درسنا الوقائع بدون فكرة سابقة تقوم على آلية رياضية انتهينا الى فرضية أدق فيما يتعلق بالتقابل بين الحالة النفسية والحالة الدماغية ، وأدركنا أن الحالة الدماغية لا تعبر من الحالة النفسية الا عن الافعال التي تحضرها هذه الحالة الدماغية : ان الحالة الدماغية ترسم للحالة النفسية مفاصلها الحركية • انك قد تعرف الحالة الدماغية التي تصاحب حالة نفسية معينة ، ولكن عكس هذا غير صحيح • فرب حالة دماغية واحدة تقابلها حالات نفسية متنوعة جدا •

ويرى برجسون أن هذه النظرية تقوم على التباس في الحدود • وأنها ما ان نقدمها بصياغة

صحيحة حتى تهدم نفسها بنفسها ، ويضيف : « وان تقرير الموازاة النفسية اليزيولوجية تقريرا مذهبيا ينطوي على حيلة جدلية ينتقلون بها خلسة من نظام اشارة الى نظام آخر مخالف له من غير أن يشعروا بعملية الابدال هذه ، وليست هذه السفسطة مقصودة ، فانما توحي بها حدود السؤال المطروح نفسه • ولا منجي لفكرنا من اقترافها عفوا ، ما لم نفرض على أنفسنا أن نصوغ فرضية الموازاة بكل واحد على حدة من نظامي الاشارة هذين اللذين تملكهما الفلسفة (١) » •

واذا ما حاولنا أن نفرق بين هذين النظامين تفريقا دقيقا • حين يتحدث المذهب الواقعي عن أشياء ،وعندما يتحدث المذهب المثالي عن تصورات، فانهما لا يتناقشان حول ألفاظ : فهذان في الواقع نظامان في الاشارة مختلفان.أي طريقتان مختلفتان في فهم تحليل الواقع • فأما بالنسبة الى المثالي فليس في الواقع شيء غير ما يبدو لشعور الفرد ، أو للشعور عامة • ومن السخف أن نتحدث عن خاصة من خواص المادة لا يمكن أن تصبح موضوع تصور•

(١) برجسون : الطاقة الروحية ص ١٧٦ .

فليس ثمة امكان كمون ، أو على الأقل ليس في الأشياء شيء امكاني نهائيا ، فكل ما هو موجود فهو فعلي أو قابل لأن يكون فعليا • أي أن المذهب المثالي نظام في الاشارة يتضمن ان كل ما هو جوهري في المادة معروض أو يمكن أن يكون معروضا في تصورنا لها ، وان مفاصل الواقع هي بعينها مفاصل التصور ، وأما المذهب الواقعي فيقوم على عكس هذا الفرض • انه يرى ان المادة موجودة بغض النظر عن التصور ، وان نحن تصورنا للمادة علة لهذا التصور لا تدرك ، وأن وراء الادراك الذي هو فعلي ، قوى وامكانيات مختبئة ، وان ما في تصورنا من تقسيمات ومفاصل متوقف على طريقتنا في الادراك •

ويلاحظ برجسون بعد هذا العرض التحليلي الشيق أنه لا بد أن نقرر النقاط الثلاثة الآتية :

١ ـ اذا اخترنا الطريقة المثالية كان القول بالتعادل بين الحالة النفسية والحالة الدماغية منطويا تناقض • ٢ ـ واذا اخترنا الطريقة الواقعية وجدنا هذا التناقض نفسه في صورة أخرى •

٣ ـ ولا يمكن أن نقــول بفكرة الموازاة الا اذا استعملنا الطريقتين معا في قضيةٍ بعينها • ولا يمكن حسب مفهوم برجسون أن نقول بأن هذه الفكرة معقولة الا اذا كنا نقفز حالا ، بنوع من البهلوانية، من الواقعية الى المثالية ومن المثالية الى الواقعية ، فنظهر في الأولى متى أوشكنــا أن يقبض علينــا متلبسين بجرم التناقض في الثانية • وطبيعي أن نفعل ذلك ، فان المشكلة التي نعالجها ، هذه المشكلة النفسية الفيزيولوجية ، مشكلة العلاقة بين الدماغ والفكر ، يوحي الينا طرحها نفسه بوجهتي النظر الواقعية والمثالية ، فكلمة « دماغ » تصرفنــا الى التفكير في شيء وكلمة فكر تصرفنا الى التفكير في تصور • حتى ليمكن القول أن منطوق الســؤال ينطوي ، بالقوة ، على الالتباس الذي سيتضمنه الجواب (١) •

وبعد أن يستعرض برجسون وجهات النظر التي أشار اليها واختارها كطرق يجب سلوكها من أجل الوصول الى حلول لمشكلة العلاقة بين الدماغ والفكر، يعمد الى تحليل النقاط الثلاثة على انفراد مبينا

(١) برجسون : الطاقة الروحية ص ١٧٨ .

حسنات وسيئات كل منها ، ومدى صلاحيتها كحلول منطقية لمشكلة العلاقة بين الدماغ والكر ، تبديدا للأوهام ، وتنويرا للاذهان ، فيقول : « ولكننا لا ندعي أننا نجحنا في ذلك نجاحا كاملا ، فما أكثر ما هنالك من أفكار تعطف على نظرية الموازاة ، وتلتف (١) حولها ، وتذود عنها • فبعض هذه الأفكار ولدته نظرية الموازاة نفسها • وبعضها الآخر وجد قبلها وشجع على ذلك الزواج غير الشرعي الذي رأيناه ينجبها ، وبعضها الثالث لم يكن بينه وبينها قرابة عائلية ، ولكنه نسج على منوالها من طول ما عاش على جنباتها • وهذه الأفكار كلها تنشيء اليوم من حول هذه النظرية خطا دفاعيا قويا ما ان نتغلب عليه في نقطة حتى تتجدد المقاومة في نقطة أخرى • ولنذكر من هذه الأفكار ما يلي :

١ ـ الفكرة الضمنية القائلة بوجود نفس دماغية (بل يمكن أن نقول عن هذه الفكرة أنها لا شعورية) • أي نفس متركزة في مادة القشرة الدماغية • فلما كان التصور يبدو انه ينتقل مع

---

(١) برجسون : الطاقة الروحية ص ١٦٨ .

الجسم ، فكروا في الأمر كما لو كان معادل التصور قائما في الجسم نفسه ، فاعتبروا الحركات الدماغية هي هذه المعادلات • فلم يبق على الشعور ، حتى يدرك العالم بدون أن ينزعج • الا أن يتمدد في هذه المساحة الضيقة ، مساحة القشرة الدماغية ، في هذه « الحجرة المظلمة » الحقيقية ، التي يتكرر فيها العالم المحيط مصغرا •

٢ ــ فكرة أن كل سببية فهي ميكانيكية ، وأنه ليس في الوجود شيء لا يمكن أن يحسب رياضيا • فلما كانت أفعالنا مشتقة من تصوراتنا (الماضية منها والحالية) ، افترضنا أن الدماغ الذي يصدر عنه الفعل لا بد يحتوي على معادل الادراك والذكرى والفكر نفسه ، والا كنا نخالف السببية الميكانيكية • ولكن القول بأن العالم كله ، ومن ضمنه الكائنات الحية ، يرد الى الرياضة المحضة ، نظرة قبلية تعود في أصلها الى الديكارتيين • واذا كان يمكن أن يعبر عنها تعبيرا حديثا وأن تترجم الى لغة العلم الحاضر • وأن يربط بها عدد متزايد من الحوادث الملاحظة (التي ساقت هي اليها) • وأن تنتسب اليها عندئذ أصول تجريبية ، فان الجزء الذي يمكن قياسه فعلا من العالم جزء محدود • والقانون الذي

يعدونه مطلقا مـا زال محتفظـا بصفـة الفرض الميتافيزيقي التي كانت له في أيام ديكارت (١) ٠

٣ ـ فكرة انه ، للانتقال من وجهة نظر التصور (المثالية) الى وجهة نظر الشي في ذاته (الواقعية) يكفي أن تحل محل تصورنا الحي الملون ، هـذا التصور نفسه وقد انحل الى رسم غير ذي ألوان ، أي الى العلاقات الرياضية بين أجزائه . لكأننا من هذا الفراغ الذي يحدثه التجريد قد نومنا تنويما مغناطيسيا فقبلنا أن نلقي في روعنا أن ثمة دلالة عجيبة تترقرق في مجرد تنقل نقاط مادية في المكان٠ أي في ادراك مضيق ، على حين أنه ما كان ليخطر ببالنا أن نمهر بهذه المزية الصورة العيانية التي نجدها في ادراكنا المباشر ، رغم أنها أغنى ٠ الحقيقة أنه يجب أن نختار بين مفهوم للواقع ينشر الواقع في المكان وبالتالي في التصور ، ويعتبره بكاملـه فعليا أو قابلا لأن يكون فعليا ، وبين مذهب يعتبر الواقع مستودع قوي ٠ ويعتبره منطويا على نفسه وبالتالي فوق المكان ٠ ليس في وسع أي تجريد أو حذف أو تقليل نجريه على الأول أن يجعله قريبا

---

(١) برجسون : الطاقة الروحية ص ١٨٩ .

من الثاني • وكل ما نكون قلناه بصدد العلاقة بين الدماغ والتصور في مثالية ملونة تقف عند التصورات المباشرة الملونة الحية أيضا ، ينطبق بعديا على مثالية معقدة ترد فيها التصورات الى هيكلها الرياضي ، ولكن تبدو فيها بوضوح أشد ، لصفتها المكانية وخارجيتها المتبادلة ، استحالة أن يحتوي أحدها على كافة التصورات الأخرى ، فان نكون محونا من التصورات الامتدادية ، بحكها بعضها ببعض ، الصفات التي تميزها في الادراك ، فليس معنى ذلك أننا اقتربنا خطوة واحدة من واقع افترضناه في اشتداد ، وافترضناه بالتالي يزداد واقعية بنسبة ما يزداد عدم امتداد ، ان قطعة النقود التي أمحت علامة قيمتها لكثرة الاستعمال لا تكتسب قوة شرائية لا حد لها •

٤ ــ فكرة انه اذا كان هنالك كلان متضامنان، فان كل جزء من الكل الأول متضامن مع كل جزء من الكل الثاني • فلما لم يكن هناك حالة شعورية الا ولها مصاحب دماغي ، ولما كان لا يتم تبدل في الحالة الدماغية الا ويتبعه تبدل في الحالة الشعورية (ولو ان العكس ليس صحيحا بالضرورة في كل الحالات) ، ولما كان الفساد الذي يصيب النشاط

الدماغي يستتبع خللا في النشاط الشعوري استنتجوا من ذلك أن أي جزء من الحالة الشعورية يقابله جزء معين من الحالة الدماغية ، وانه يمكن ، تبعا لذلك ، أن يحل أحد الحدين محل الآخر . الا أنه لا يجوز لنا أن نطبق على تفاصيل الاجزاء شيئا لم نلاحظه أو نستدل عليه الا في الكلين ، وأن نقلب بذلك علاقة التضامن الى علاقة معادل بمعادل . ان وجود لولب صغير في الآلة يتيح لها أن تعمل ، وفقدان هذا اللولب يوقفها عن العمل ، فهل يتبع ذلك ان كل جزء من اللولب يقابل جزءا من الآلة ، وان اللولب معادل الآلة . ان علاقة الحالة الدماغية بالتصور يمكن أن تكون كعلاقة اللولب بالآلة ، أي علاقة الجزء بالكل .

هذه الافكار الاربع نفسها تتضمن عددا كبيرا من الافكار الأخرى التي يكون من الشائق أن نحللها هي الاخرى ، لأننا سنجد فيها مرافقات مختلفة لنغمة أساسية واحدة هي نظرية الموازاة .

برجسون والمادة والروح :

يعتقد برجسون ان حياة الروح لا يمكن أن

(١) برجسون : الطاقة الروحية ١٩٠ .

تكون نتيجة لحياة الجسد ، بل بالعكس ، فكل شيء يجري ، هنا ، كما لو كان الجسد موضوعاً تحت تصرف الروح ، ولذلك لا نستطيع أن نفرض أن الروح والجسد متحدان اتحادا يتوقف وجود كل منهما فيه على وجود الآخر • لست لأزعم أن بمقدوري أن أحل ، في هذه الفترة الباقية من عمري ، أخطر مشكلة يمكنها أن تطرح على وجدان البشرية ، ولكنني ، لن أكون راضيا عن نفسي ان أنا ضربت عنها صفحا • من أين جئنا ؟ وماذا نصنع في هذه الدنيا ؟ والى أين نحن ذاهبون ؟ ان صح ان الفلسفة لا تستطيع أن تجيب على هذه الأسئلة (١) الحيوية الخطيرة ، ولا أن توضحها ، شيئا فشيئا ، كما تتوضح مسألة من مسائل علم الحياة ، مثلا ، أو من المسائل التاريخية بواسطة اختبار أعمق فأعمق ، وبنظرة أنفذ فأنفذ الى الحقيقة الواقعية ، وان صح ، بالتالي ، ان الفلسفة تظل عاجزة عن التوفيق بين وجهتي نظر الذين يقولون بخلود النفس وبين الذين ينكرونه لأسباب تستند ، تخمينا ، الى جوهر النفس والجسد ،

(١) برجسون : الطاقة الروحية ص ٢٧ .

حينئذ يصح القول ان كل الفلسفة لا تساوي ساعة عناء • لا شك في أن البرهنة الاختبارية على خلود النفس غير ممكنة ، لأن الاختبار لا يمكن اجراؤه الا على ما له مدة من الزمن ذات حدود • حينما يتكلم الدين عن خلود النفس ، فانه يستند ، في كلامه الى الوحي • ولكن ، يجب أن نحاول ، على صعيد الاختبار ، الاقتراب من احتمال ، وحتى من ترجيح صحة بقاء النفس في الحياة بعد موت الجسد الى زمن مجهول ، تاركين معرفة ما اذا كان هذا الزمن محدودا ، أو غير محدود ، خارج الصعيد الفلسفي • اذا قنعنا بهذا الحل المتواضع ، أصبحت مشكلة مصير النفس قابلة للمعالجة فلسفيا • هو ذا دماغ يشتغل ، وهو ذا وجدان يحس ويفتكر ويريد : فان كان شغل الدماغ يعادل الوجدان بكامله ، أو كان الوجدان كله ، أمكن ، آنذاك ، للوجدان أن يتبع مصير الدماغ ، وأمكن للموت أن يكون نهاية كل شيء ، وأصبح على الفيلسوف الذي يقول ببقاء النفس أن يثبت وجهة نظره بالاستناد الى براهين مستمدة من علم المعقولات ، أي الى براهين غير حاسمة • ولكن ، اذا كانت الحياة الوجدانية تجاوز وظيفة الدماغ ، كما

حاولنا أن نثبت ، واذا كانت وظيفة الدماغ لا يمكنها أن تحرك سوى قسم صغير ، فقط ، مما يحتوي عليه الوجدان ، كان بقاء النفس هكذا أقرب الى الاحتمال حتى ليصبح على من ينكره أن يبرهن على وجهة نظره بدلا ممن يقول به • صحيح ان منهاجنا الفلسفي الاختباري لا يطمع ، هنا ، في البلوغ الى حل حاسم ، بل يتوخى فقط ، أول ما يتوخى ، الاقتراب ، أكثر فأكثر من احتمال يزداد ازديادا مطردا حتى يقودنا في نهاية المطاف ، الى حالة تشبه اليقين ، عمليا • هذا هو المنهاج الفلسفي الذي وقع عليه اختياري •

ويوضح برجسون ان على عاتق الفلسفة تقع مهمة دراسة حياة النفس في كافة مظاهرها فيقول : « فواجب الفيلسوف الذي تمرس بالملاحظة الداخلية أن يسبر أعماق نفسه • ثم يتابع في عودته الى السطح الحركة التدريجية التي بها يرتخي الشعور ويمتد ، ويتهيأ لأن ينتشر في المكان ، فاذا شهد الفيلسوف هذه الصيرورة (١) التدريجية الى مادة ، ورصد الخطوات التي يبرز فيها الشعور الى

(١) برجسون : الطاقة الروحية ص ٣٤ •

الخارج أمكنه على الاقل أن يصل الى حدس غامض لما عسى أن يكون عليه نفاذ الروح في المادة ، وعلاقة الجسم بالنفس ، نعم ان هذا الحدس لن يكون الا شعاعا أول • غير أن هذا الشعاع سمسك بأيدينا ويوجهنا بين تلك الظاهرات الكثيرة التي يعرفها علم النفس وعلم الامراض النفسية • وستعمل هذه الظاهرات بدورها على تقويم منهج الملاحظة الداخلية ، اذ تصحح ما عسى أن يكون في التجربة الداخلية من خطأ ، وتكمل ما عسى أن يكون فيها من نقص • وهكذا فاننا بالتردد بين مركزين للملاحظة ، الداخل والخارج ، نصل الى حل للمسألة يقترب من الصحة شيئا بعد شيء ، وما أدعى انه كامل كما تريد أن تكون حلول الفلاسفة في معظم الأحيان،وانما أقول انه يدنو من الكمال باستمرار ، كالحلول العلمية سواء بسواء • ولما كانت الدفعة الأولى ستأتي من الداخل ، وكنا ننشد الايضاح الأول من الرؤية الداخلية ، فان المسألة تظل مسألة فلسفية ، كما يجب أن تكون •

غير ان الفيلسوف لا يستسهل الهبوط من القمم التي يحلو له أن يقيم فيها ، فقد أهاب به أفلاطون أن يتجه الى عالم المثل • وهنالك ، بين المفاهيم

المجردة ، طاب له المقام : (١) ينشب بيتها الخلاف ، ثم يردها الى الصلح ، طوعا أو كرها ، ويقوم في هذا الأفق الممتاز بدور الدبلوماسي الراقي ٠ انه يتردد عن الاتصال بالوقائع عاليها فضلا عن دانيها من أمثال الأمراض العقلية : فكأنه يخشى أن تتسخ بها يداه ، والخلاصة أن النظرية التي كان يحق للعلم أن ينتظرها هنا من الفلسفة ، النظرية المرنة القابلة للتكامل ، المنطبقة على جملة الوقائع المعروفة ، لم تنشأ الفلسفة أو لم تستطع أن تقدمها اليه ٠

وطبيعي أن يقول العالم عندئذ لنفسه : « ما دامت الفلسفة لا تسألني ، بالاستناد الى الوقائع والبراهين ، أن أحدد التقابل المفروض بين ما هو نفسي وما هو دماغي ، على هذا الوجه المعين أو ذاك ، وفي هذه النقطة المعينة أو تلك ، فسوف أعمل موقتا كما لو كان هذا التقابل تاما ، وكما لو كان ثمة تعادل بل وحدة ٠ فأنا الفيزيولوجي ، بما أملك من وسائل المشاهدة والتجريب الخارجيين الخالصين ، لا أرى الا الدماغ ، ولا سلطان لي الا

(١) برجسون : الطاقة الروحية ص ٣٥

على الدماغ ، فسأنهج اذ كما لو يكن الفكـر الا وظيفة للدماغ • وسيكون من شأن ذلك أن يزيد جرأتي على السير ، ويضاعف حظي من التقدم • فحين لا يعرف المرء حدود حقوقه يفترضها في أول الأمر غير ذات حدود » • كذلك قال العالم لنفسه ، وكان يمكن أن يكتفي بهذا لو استطاع أن يستغني عن الفلسفة •

غير ان الفلسفة لا يستغنى عنها ، فكـان من الطبيعي ، ريثما يقدم الفلاسفة اليه تلك الفلسفة المرنة ، القابلة لأن تتكيف وفق التجربة الداخلية والخارجية والتي يحتاج اليها العلم ، كان مـن الطبيعي ريثما يتم ذلك أن يقبل من يدي الميتافيزياء القديمة تلك النظرية الجاهزة (١) المؤلفة من هنا ومن هناك ، التي تنطبق خير انطباق على المنهج الذي كان قد أفاد منه خيرا كثيرا • ولم يكن له خيار على كل حال •

ان النظرية الوحيدة الواضحة التي خلفتها لنا ميتافيزياء القرون الثلاثة الاخيرة ، بصدد هـذه

---

(١) برجسون : الطاقة الروحية ص ٣٦ .

النقطة ، هي أن ثمة موازاة دقيقة بين النفس والجسم ، فاما ان النفس تعبر عن بعض أحوال الجسم ، أو أن الجسم يعبر عن النفس ، أو أن الجسم والنفس يعبران كلاهما ، بلغتين مختلفتين ، عن أصل واحد ليس بالنفس ولا بالجسم ،والدماغي على أية حال من هذه الاحوال الثلاثة يعادل النفسي معادلة دقيقة • فكيف توصلت فلسفة القرن السابع عشر الى هذه النظرية أو هـذا الفرض ؟ ليست دراسة تشريح الدماغ ووظائفه هي التي أوصلتهم الى ذلك طبعا لأن هذه الدراسة لم تكد تبدأ في ذلك الحين ، ولا هي دراسة بنية الفكر ووظائفه وما يطرأ عليه من اختلال ، لا ، وانما استخرج هـذا الفرض استخراجا طبيعيا من مبادىء فلسفية عامة تخيلوا جلها ان لم يكن كلها ، تأييدا لآمال الفيزياء الحديثة » •

ويستمر برجسون في استعراض آراء الفلاسفة الذين درسوا هذه النواحي في عصر النهضة حيث ظهرت اكتشافات كبلر وجاليلو القاضية بامكان رد المسائل الفلكية والفيزيائية الى مسائل ميكانيكية ، ومن ثم كانت تلك الفكرة التي تصور مجمـوع الكون المادي ، غير العضوي منه والعضوي ، على

أنه آلة كبيرة خاضعة لقوانين رياضية . وكان لا بد عندئذ حسب رأي برجسون أن تندرج الكائنات الحية عامة ، وجسم الانسان خاصة ، في هذه الآلة ، كما تندرج الدواليب في جهاز الساعة ، فعد الانسان غير قادر على أن يفعل شيئا لم يحدد من قبل ولا يمكن أن يحسب حسابا رياضيا (١) . وهكذا جردت النفس الانسانية من قدرتها على الخلق ، وأصبح من الضروري ، اذا صح وجودها ، أن لا تكون حالاتها المتعاقبة الا تعبيرا ، بالفكر والعاطفة ، عن نفس الأمور التي يعبر عنها جسمها بالامتداد والحركة .

وبعد أن يغوص برجسون في أعماق الفكر ، وفي مصاحبه الفيزيولوجية ، يرى بأن احساس الناس صادق ، وأن في الشعور الانساني أكثر مما في الدماغ المقابل بما لا نهاية له . ثم يشرح النتائج التي وصل اليها من خلال هذه الفكرة ، فيقول : « ان من يستطيع أن ينظر في داخل الدماغ ابان عمله ، وأن يتتبع ذبذبات الذرات ذاهبة آيبة ، وأن يفسر كل ما تقوم به ، يستطيع ولا شك أن

(١) برجسون : الطاقة الروحية ص ٣٧ .

يعرف شيئا مما يجري في الفكر • ولكنه لا يستطيع أن يعرف الا شيئا يسيرا • انه يعرف ما يعبر عنه الجسم باشارات وأوضاع وحركات ، يعرف ما تنطوي عليه الحالة النفسية من فعل يتحقق أو يشرف على التحقق.أما ما عدا ذلك فلن يعرفه(١)• سيكون مثله بازاء الافكار والعواطف التي تجري في داخل الشعور كمثل الشاهد الذي يرى كل ما يقوم به الممثلون على المسرح من غير أن يسمع كلمة مما يقولون • نعم ، ان لحركات الممثلين وأوضاعهم ، في ذهابهم وايابهم ،مبررها في المسرحية التي يمثلونها ، حتى لقد نتنبأ بالحركة اذا نحن عرفنا الكلام • الا ان عكس هذا ليس بصحيح ، أي ان معرفة الحركات لا تفيدنا في معرفة المسرحية الا قليلا جدا • ذلك ان الملهاة الرفيعة أغنى من الحركات التي تمثلها • وهكذا فانني أعتقد أننا نستطيع أن نعرف ما يجري في الدماغ اذا عرفنا الحالة النفسية (في حالة اكتمال علمنا بالجهاز الدماغي وبالسيكولوجيا (٢)) ولكن عكس هذه

---

(١) برجسون : الطاقة الروحية ص ٣٩ .
(٢) برجسون : المادة والذاكرة : الفصل الاول .

العملية مستحيل · لأن الحالة الدماغية الواحدة قد تقابل طائفة من الحالات النفسية المختلفة التي تناسبها بدرجة واحدة · أنا لا أقول ـ ولتلاحظوا ذلك جيدا ـ ان أية حالة نفسية يمكن أن تقابل حالة دماغية معينة · فانكم حين تضعون اطارا لا تدخلون فيه أية لوحة ، فالاطار يحدد اللوحة بعض الشيء لمجرد أنه لا يقبل من اللوحات الا التي توافقه ، شكلا وأبعادا ، وينبذ ما عدا ذلك ، ولكن يكفي أن يتوفر الشكل ، وتتوفر الابعاد حتى تدخل اللوحة في الاطار · والأمر على هذا النحو فيما يتصل بالدماغ والشعور · فيكفي أن تكون هذه الأفعال البسيطة ـ الاشارات والأوضاع والحركات ـ التي تظهر فيها الحالة النفسية المعقدة، يكفي أن تكون هي التي يحضرها الدماغ حتى تدخل الحالة النفسية دخولا محكما في الحالة الدماغية (١)·

ولكن ثمة طائفة كبيرة من اللوحات المختلفة يمكن أن تدخل كذلك في هذا الاطار نفسه ·وينتج عن هذا أن الدماغ لا يحدد الفكر ، وأن الفكر مستقل عن الدماغ ، في جزء كبير على الأقل » ·

---

(١) برجسون : الطاقة الروحية ص ٤ .

ويواصل برجسون تحليله لعمل الدماغ والمادة الدماغية ، وتأثير بعض السموم في الشعور ، وتأثير المرض الدماغي عامة في الحياة النفسية ، ثم يتساءل اذا كان الفكر نفسه ، في مثل هذه الحالة ، هو الذي اختل أم أن الذي اختل هو جهاز اتصال الفكر بالأشياء ؟ حين يهذي مجنون فان تفكيره قد يكون متفقا مع أدق قواعد المنطق • ويذهب الى أنه قد يخيل الينا ، حين نسمع أحدا من المجانين يتحدث عن نفسه ، انه لا يخطيء الا لاسرافه في استعمال المنطق • والواقع أن ضلاله ليس ناتجا عن أنه يفكر تفكيرا خاطئا ، بل عن أنه يفكر بعيدا عن الواقع ، يفكر خارج الواقع ، كمن يحلم • فلنفرض ما دام هذا معقولا ، ان سبب المرض هو تسمم المادة الدماغية • فهل يجب أن نعتقد أن السم مضى يصيب التفكير في هذه الخلايا أو تلك من خلايا الدماغ . وأن هناك في بعض النقاط المعينة من الدماغ حركات من الذرات تقابل هذا التفكير ؟ كلا • بل المرجح أن الدماغ كله هو الذي أصيب ، كما أن الحبل المشدود كله ، لا جزءا من أجزائه ، هو الذي يرتخي حين لا تشد العقدة • ولكن كما أنه يكفي ارتخاء بسيط في قلس السفينة حتى تأخذ

السفينة بالترنح فوق الأمواج ، كذلك يكفي تبدل بسيط في المادة الدماغية حتى يفقد الفكر اتصاله بمجموع الاشياء المادية التي يتكيء عليها عـادة ، فيشعر بأن الواقع ينسل من تحته ، فيتمايج ويأخذه دوار (١) .

وفي انتهاء هذه المقارنة التحليلية يؤكد برجسون أن هذه الاشياء التي تعرض لها تبين مدى علاقـة الروح بالجسد ، وأنه يستحيل عليه أن يحصي أو يعدد الوقـائع والاسباب التي يقوم عليهـا هذا المفهوم .

برجسون والديمومة :

عالج الفيلسوف الفرنسي هنري برجسـون في كتاباته ورسائله التي وجهها الى العلماء والاصدقاء مشكلة الديمومة التي اعتبرها كنقطة الدائرة في فلسفته ، لذا لا بد لنا من ايراد بعض الفقرات التي كتبها في رسالته التي وجهها الى هوفدنغ سنة ١٩١٦ ميلادية ، والتي سجل فيها تصوراته العقلية

(١) برجسون : الطاقة الروحية ص ٤٥ .

المعقدة ، يقول : « ان الوجود الذي نتيقنه أكثر من أي وجود آخر هو بلا ريب وجودنا ، لأننا نشعر به في داخلنا وبكل شعورنا . فما هو ، في هذه الحالة الفريدة ، المعنى الدقيق لكلمة وجود ؟ لنرجع هنا باختصار الى خلاصة بحث سابق .

اني أشعر باديء ذي بدء ، بأني أنتقل من حالة الى حالة : أشعر بالحر أو بالبرد ، بالفرح أو بالحزن ، اني أعمل شيئا أو لا أعمل ، أنظر الى ما حولي أو أفتكر في شيء آخر : انها احساسات ، وعواطف ، ورغائب ، وتصورات ، أي تغيرات تتقاسم وجودي وتلونه بالتوالي . اذن أنا أتغير في كل لحظة تغيرا أعمق مما أظن لأول وهلة (١) .

اني أتكلم بالحقيقة ، عن كل حالة من حالاتي كما لو كانت هذه الحالة تشكل كتلة واحدة . صحيح اني أقول : أنا أتغير ، ولكن ، يخيل لي ان هذا التغير يتم بالانتقال من حالة الى الحالة التي تليها ، وأحب أن أعتقد أن كل حالة ، مأخوذة بمفردها ، تبقى هي هي خلال كل الوقت الذي

---

(١) أندريه كريسون : برجسون ص ٨٧ .

تتكون فيه • بيد أن قليلا من الانتباه يبين لي أن كل تأثير ، وكل تصور ، وكل قصد ، يتغير في كل لحظة ، لأنه لو توقفت أية حالة نفسية عن التغير ، لتوقف الزمن بالنسبة اليها • لتأخذ مثلا ، الحالة النفسية الداخلية الاكثر ثبوتا ، كالادراك الحسي النظري لشيء خارجي غير متحرك : فمهما ظل الشيء هو ذاته أمامي ، ومهما نظرت اليه ذات النظرة ، ومن ذات الزاوية ، وفي ذات الضوء ، فان هذا الشيء يتغير ، مع ذلك في كل لحظة ، على الأقل ، باضافة هذه اللحظة من الزمن اليه • كلما تقدمت حالتي النفسية على طريق الزمن ، تتضخم باللحظات الزمنية التي تضمها اليها ، وهذا ما يقال بالأحرى عن الحالات الاكثر داخلية : احساسات ، وتأثرات ، ورغبات ، الخ • لأنها لا تتعلق برؤيو شيء خارجي ، جامد • بيد أننا لا نحب أن نجهد أنفسنا في الانتباه الى استمرار هذا التغير ، ولا نضطر الى ملاحظته الا حينما (١) يتضخم تضخما كافيا ويفرض على الجسد موقفا جديدا ، وعلى الانتباه اتجاها جديدا : حينئذ

(١) اندريه كريسون : برجسون ص ٨٩ .

فقط ، نتنبه الى أننا انتقلنا من حالة الى حالة ، أما الحقيقة ، فهي أننا نتغير باستمرار ، وأن كل حالة هي تغير بمجرد كونها حالة في الزمن ٠

هذا يعني أنه لا يوجد فرق جوهري بين الانتقال من حالة الى حالة وبين الاستمرار في ذات الحالة : فان تكن الحالة التي تبقى هي ذاتها ، تتغير أكثر مما نظن ، فالانتقال من حالة الى حالة يشبه أكثر مما نتصور ، الحالة ذاتها في تمددها : فالانتقال مستمر ، ولكن بما أننا نغض الطرف عن التغير المتواصل لكل حالة سيكولوجية ، لذلك نظن حينما يصبح التغير واضحا ، ان حالة جديدة أضيفت الى الحالة القديمة ٠ وهكذا دواليك ٠ فالانفصال الظاهري في الحياة السيكولوجية ينجم عن نظرنا اليها نظرات متقطعة : فحيث لا يوجد سوى منحدر دقيق نظن أننا نرى باتباعنا الخط المتكسر التي تخلقه مخيلتنا ، درجات سلم ٠ لا شك في أن حياتنا السيكولوجية مليئة بالمفاجآت ٠ تحدث الحوادث وكأن كلا منها مستقل عما قبله وعما بعده ، بينما هي يربطها بعضها ببعض سلك خيالي يوهمنا أنها منفصلة بعضها عن بعض ٠ انها قرعات طبل تسمع من حين الى آخر في الايقاع المتواصل ٠

ليس كل حادث منها سوى النقطة الاكثر انارة في قطاع متحرك يتضمن كل ما نحس ، ونفتكر ، ونريد ، أي كل ما نحن اياه خلال لحظة معينة • فهذا القطاع بكامله هو الذي يعتبر بالحقيقة ، حالتنا السيكولوجية المتبدلة ، في سيرها المتواصل ، بحالات جديدة (١) •

ولكن ، بما أن انتباهنا ميز هذه الحالات وفصلها فصلا اصطناعيا ، لذلك كان لزاما عليه أن يربطها ، في ما بعد ، برباط اصطناعي ، فيتصور « أنا » لا شكل له ، ولا قصد ، ولا حركة تمر عليه أو تتعلق به هذه الحالات السيكولوجية التي جعل منها وحدات مستقلة • فحيث لا يوجد سوى تموجات تلون هاربة يزاحم بعضها بعضا ، يلمح انتباهنا ألوانا واضحة ، وكأنها ثابتة ، تنضم بعضها الى بعض كدرر العقد ، لذلك يرى لزاما عليه أن يتخيل لها سلكا ثابتا يمسكها معا • ولكن أن يكن هذا القوام الذي لا لون له يتلون بما يستره ، فانه في عدم تحديده ، كأنه ليس بموجود بالنسبة الينا » •

---

(١) اندريه كريسون : برجسون ص ٩٠ •

نحن في الواقع لا ندرك حسيا ، سوى ألوان ، أي حالات سيكولوجية • ان هذا السلك الوهمي ، ان هذا القوام هو أمام وجداننا ، مجرد علاقة معدة لتذكره باستمرار ، الصفة الاصطناعية للعملية التي يضيف بها انتباهنا حالة الى حالة حيث لا يوجد سوى استمرار يتتابع • لو كان وجودنا يتكون من حالات منفصلة تحتاج الى « أنا » عديم التأثر لكي يجمعها ، لما كان لنا ديمومة ، لأن « أنا » لا يتغير ، لا يمكنه أن يستمر ، ولا أن يدوم ، ولأن حالة سيكولوجية تظل هي هي طالما لا تخلفها الحالة التالية ، لا يمكنها أن تدوم هي أيضا • عبثا نضيف آنذاك ، تلك الحالات الواحدة الى الأخرى ، على « أنا » يمسكها ، فتلك المجمدات المرصوفة على مجمد لن يمكنها ، أبدا ، أن تصنع ديمومة تتواصل• الحقيقة هي أننا لا نحصل ، آنذاك ، الا على تقليد اصطناعي لميعان داخلي ، أو على معادلة جامدة تلائم متطلبات المنطق واللغة لسبب جذفنا الزمن الحقيقي ، أما الحياة السيكولوجية التي تجري تحت الرموز والشعارات التي تغطيها ، فمن السهل علينا أن ندرك أن الزمن هو نسجها الأثبت ، لأن ديمومتنا ليست لحظة تخلف لحظة ، والا لما كان لنا سوى

حاضرنا ، ولما اتصل ماضينا بالحاضر ، ولما تطورنا ، ولما كان لنا ديمومة حقيقية • ان الديمومـة هي استمرار تقدم الماضي في المستقبل ، وتضخمه منه ، مع الاحتفاظ بذاته • ليست الذاكرة ، كما بينا خاصية رصف الذكريات ، كما في درج ، أو تسجيلها في سجل • ليس ثمة لا سجل ولا درج ، حتى ولا خاصية ، بالضبط ، لأن الخاصية تعمل بتقطـع حينما يريد ، أو حينما تستطيع ، بينما تراكـم الماضي على الماضي يتتابع باستمرار • في الحقيقة ، يحتفظ الماضي بذاته آليا • انه يتبعنا بلا شك ، بكامله وفي كل لحظة : فما شعرنا به ، وافتكرنا فيه وأردناه منذ الطفولة الأولى هو هنا ينحنـي على الحاضر المزمع أن ينضم الى الماضي ، ويدفع باب الوجدان الذي يود أن يتركه خارجا • ان الجهاز الدماغي يحاول ، بطبيعة تكوينه ، أن يحشر معظم الماضي في اللاوعي لكي لا يترك في الوجدان الا ما من شأنه أن ينير الموقف الحاضر ، وأن يساعد العمل الذي يتهيأ ، وأن يعطي أخيرا شغلا مفيدا • غير ان ذكريات كمالية خارقة العادة تمر أحيانا مـن الباب المشقوق تهريبا : انها رسل اللاوعي تعلمنا بما نجر خلفنا مما لا نشعر به ، ولكن بالرغم من

أننا لا نشعر به شعورا واضحا ، فاننا نحس حضور ماضينا معنا بصورة مبهمة • فماذا نحن ، بالحقيقة وما هو طبعنا ، ان لم يكن خلاصة التاريخ الـذي عشناه منذ مولدنا ، حتى ومنذ قبل مولدنا ، لأننا نحمل معنا من قبل أن نرى النور ، استعـدادات وراثية ؟ لا شك في أننا لا نفكر ولا نتصور (١) الا بجزء صغير من ماضينا ، لكننا نرغب ونريد ونعمل بكل ماضينا ، بمـا فيه مـا ورثناه مـن الاستعدادات النفسية الاصلية عند مولدنا •

ويستحيل على الوجدان ، بالنظر الى استمرار الماضي ، أن يمر مرتين بذات الحالة : فمهما ظلت الظروف ذاتها فان الشخص الذي تعنيـه يتغـير دائما ، انه يجتاز في كل لحظة نقطة قديمة مـن تاريخ حياته الى نقطة جديدة • اننا نبني شخصيتنا باختبار يتراكم في كل لحظة ، لذلك نحن نتغـير دائما ، وتتجدد كل حالة من حالاتنا ان لم يكـن سطحيا ، فعمقا ، ولذلك تكون ديمومتنا تغـيرا متواصلا • قد نستطيع أن ننحي هذه الذكرى ، أو تلك ، عن ذهننا ، لكننا لا نستطيع أن ننحيها عن

---

(١) اندريه كريسون : برجسون ص ٩٢ .

ارادتنا ..

هكذا تنمو شخصيتنا وتنضج بصورة متواصلة، فكل لحظة من تاريخنا هي جديد يضاف الى قديم ، بل هي شيء لا يمكن ارتقابه لأنه غارق في ظلام الغيب .

وحينما تكتمل لوحـة المصور ، نستطيـع أن نفسرها بهيئة مثالها ، وبموهبة مصورها ،وبالألوان التي أعدت لها ، غير ان مصورها ذاته لـم يكـن ليستطيع قبل اكتمالها ، أن يتكهن بمصيرهـا . وهذا ما يصح قوله عن لحظة من لحظات حياتنا : انها نوع من الخلق (١) . وكما ان موهبة المصور تتكامل أو تتناقص ، أي تتنوع ، تحت عوامـل الآثار التي يخلقها ، هكذا كل حالة من حالاتنـا فانها في ذات الوقت الذي نخلقها فيه ، تنوع هي شخصيتنا ، أي الشكل الجديد الذي نرتديه ، لذلك يصح القول ان ما نصنعه يتوقف على ما نحـن اياه . ولكن يجب أن نضيف اننا نوعا ما ما نصنعه، وأننا نخلق ذاتنا بذاتنا خلقا متواصلا (٢) .

---

(١) اندريه كريسول : برجسون ص ٩٤ .
(٢) المصدر نفسه ص ٩٥ .

وتكتمل عملية هذا الخلق بقدر ما نحن نفكر في ما نصنع • هنا لا يعمل الفكر كما يعمل في الهندسة ، مثلا ، حيث مقدمتا القياس المنطقي موضوعتان ، مسبقا ، بصورة غير شخصية ، وحيث تتحتم نتيجة غير شخصية • هنا يمكن لذات الاسباب أن تملي على أناس مختلفين ، أو على ذات الانسان في أوقات مختلفة ، أفعالا مختلفة قد تكون جميعها معقولة • بيد أن هذه الأسباب ليست ، بالحقيقة ، واحدة ، لأنها تعني أناسا مختلفين ، أو ذات الانسان في أوقات مختلفة ، لذلك ، لا يمكننا أن نحكم عليها من الخارج ، كما في الهندسة ، ولا أن نحل مشاكل الغير التي تفرضها عليه حياته ، عوضا عنه ، لأن عليه أن يحلها ، هو ، من الداخل ، وعلى حسابه الشخصي (١) •

ليس لدينا ، الآن ، أن نتعمق في هذه النقطة ، بل أن نبحث ، فقط ، عن المعنى الدقيق الذي يعطيه وجداننا لكلمة « وجود » فنرى ان الوجود يعني ، هنا ، التغير ، وأن التفسير يعني النضوج ، وأن النضوج يعني خلق الانسان ذاته بذاته خلقا

---

(١) اندريه كريسول : برجسون ص ٩٥

متواصلا » •

الكيف والديمومة عند برجسون :

من الملاحظ أن برجسون انطلق في مفهومه الانتقادي من مشكلة الزمن ، ومنها اتجه الى مسألة الشعور النفسي ، ومن ثم الى قضية الحرية ، ولهذا بمقدورنا أن نعتبر نظرية برجسون عن الحرية تجسيدا لمواقفه الانتقاديةالتحليلية منعلم النفس •

وحتى نتوصل الىمعرفة آراء برجسون الفلسفية بالحرية ، وكيف جاءت هذه الحرية مختلفة عن الأسس السابقة التي قال بها الفلاسفة في قضية الحرية ؟ لذا لا بد لنا من التطلع الى ما كتبه برجسون في كتابه عن « معطيات الشعور المباشرة » الذي يوضح فيه موقفه أشد الوضوح •

يقول برجسون في الفصل الأول من كتابه المذكور أن ادراكنا للشدة في الحالات النفسية المختلفة يعود اما الى تقديرنا لعدد الحالات البسيطة التي تتسرب الى الحالة الاصلية وتنضاف اليها ، كما هو الأمر في الحالات النفسية القائمة بذاتها أو المكتفية بنفسها مثل المشاعر العميقة والانفعالات

العادة ، وأما الى تقديرنا لكم العلل الخارجية وخلطنا بين المؤثر الفيزيقي والحالة النفسية ، كما هو الأمر في الحالات الشعورية المتمثلة عن سبب خارجي أو التي تصاحبها تغيرات جسمية مثل الاحساس بالصوت أو بالحرارة أو بالثقل أو بالضوء .

واذا تعمقنا في فحص الاحساسات الخالصة التي ترتبط بعللها الخارجية ارتباطا قويا ، كما هو الحال مثلا في المجهود العضلي ، حيث يظهر الشعور منبسطا في الخارج وتبدو الشدة امتدادا مكانيا . فنحن نعتقد حسب تفكير برجسون حيث نشد أكثر وأكثر على قبضة اليد أن ثمة حالة وجدانية واحدة تتغير كمًّا وتزيد مقدارا دون أن نلاحظ أن الشعور الظاهر بالقوة الأشد في مركز معين من الكائن الحي يرجع في الواقع الى ادراكنا بأن سطحا أوسع في الجسم يساهم في العملية (١) .

ونحن نعتقد كذلك حين نرفع أثقالا متزايدة في الوزن أن هناك ازديادا مستمرا من القوة النفسية

---

(١) برجسون : معطيات الشعور المباشرة ص ١ .

المزدحمة في الذراع ، دون أن تلاحظ أننا نقيس الحالة النفسيـة بالحركـات (١) الواعيـة التي تصاحبها • ان الشدة هنا بالمثل لا تعني بقاء الحالة النفسية مع اختلاف مقدارها ، وانما تعني تغـير الحالة كيفا ، اذ يصبح الثقل تعبا ، ويصبح التعب ألما • ولهذا كان وعينا بازدياد المجهود العضلي يعود الى ادراكنا المزدوج لعدد أكبر من الاحساسات التي تحيط به ولتغيـير كيفي يحـدث في بعض هـذه الاحساسات •

ولا يختلف الأمر عن ذلك حينما نقدر الشدة في حالة الانتباه : اننا نعتقد أننا نعي اشتدادا متزايدا في النفس ، أو مجهودا لا ماديا ينمو ويكبر بينما نحن ننظر فحسـب الى الحركـات التي تصاحـب الانتباه • وفي رأي برجسون أننا لا نجد في الانتباه حين نحلله غير احساس بتقلص عضلي ينتشر على السطح أو يتغير في طبيعته فتتحول الشدة الى الضغط ثم الى التعب ثم الى الألم • فاشتداد الانتباه ليس تزايدا كميا لحالة معينـة وانما هو تغـير هـذه

---

(١) برجسون : معطيات الشعور المباشرة ص ١٩ .

الحالة (١) ٠

أما ما يرتبط بالانفعالات القوية مثل الغضب أو الخوف فيعود ادراكنا للشدة الى تقديرنا لعدد الاحسسات التي تحيط بالانفعال الاصلي وبطبيعة هذه الاحساسات ، كأن نقدر الخوف باضطراب النبض واسراعه ٠ فاذا كان الانفعال هادئا مستكنا تحولت هذه الاحساسات الى عناصر باطنة ، مثل الأفكار والذكريات ، وعدنا في تقديرنا لشدة الانفعال الى هذه العناصر الباطنة ٠ أما اذا كان الانفعال حادا ثائرا انعكست هذه العناصر الى الخارج ، كأن يخفق القلب أو تشتد اللهثات ، ورجعنا في تقديرنا لشدة الانفعال الى الاحساسات التي تحيط به وتحل محل العناصر الباطنة ٠ فالشدة في الحالين تشمل بمفهوم برجسون كثرة من الحالات البسيطة التي يتبينها الوعي فيها بشيء من الغموض (٢) ٠

وربما تنعكس الشدة في الحالات النفسية الى

(١) برجسون : معطيات الشعور المباشرة ص ٢١
(٢) المصدر نفسه ص ٢٣ .

مقادير وتتحول الفروق الكيفية الى فروق كمية • فاذا لاحظنا الاحساسات العاطفية ، كاللذة والألم ، توضح لنا أننا نقدر بعدد الحالات النسفية التي نستشفها في صميم الاحساس الاصلي ، والتي تترجم عما نقوم به ازاء الاحساس الاصلي من ردود فعل أو عما نتحفز لأن نقوم به في المستقبل • اننا نحدد شدة الألم بعدد (١) أجزاء الجسم وامتداد هذه الأجزاء التي تشارك في الألم • ولكننا اذا اعتبرنا الألم بمعزل عن ردود الفعل تبينا أن شدته كيف محض وليست كما متزايدا • ونحن نقدر كذلك شدة اللذة اما بميلنا نحوها ، أي بالحركات التي نقوم بها في نزوعنا نحو اللذة التي يتمثلها ادراكنا، واما بجمودنا فيها ، أي مقاومتنا لما يشغلنا عن اللذة التي نتذوقها بالفعل • ولكنا اذا نظرنا الى اللذة بمعزل عن الحركات التي يتضمنها ميلنا للذة أو بمعزل عن هذه القوة الجامدة تبينا أن اللذة حالة وليست مقدارا أو كمية • نحن اذن نقلب التغير الكيفي الى مقدار كمي يزيد أو ينقص • هذا موقفنا في حياتنا ولغتنا المعتادة ، وهو موقف

---

(١) برجسون : معطيات الشعور المباشرة ص ٢٧ .

العلماء والفلاسفة الذين يختلفون عن برجسون الذي تناول تلك الحالات النفسية القائمة بذاتها ، وبين لنا أيضا أننا نقع في نفس الخطأ فيما يتعلق بالحالات الشعورية المتمثلة عن سبب خارجي ، حين نعتقد أنها مقادير يمكن أن نقيسها وأن نقدر كمها • لأن بعض هذه الاحساسات ربما يحمل طابعا عاطفيا فيكون تقديرنا لشدتها راجعا عندئذ الى ما تثيره فينا من ردود الفعل ، غير أن الاحساسات التمثيلية البحتة الخالية من أي طابع عاطفي لا يمكن كذلك أن تزيد أو تنقص علتها الخارجية دون أن تثير فينا حركات تعيننا هي أيضا على أن نقيسها• أما حينما تتلاشى ردود الفعل فاننا لا نلبث أن نقدر الاحساس بعلته الخارجية ونعبر عن الشدة بالمقدار ، رغم أن الاحساس كيف بحت بينما العلة الخارجية امتداد يقاس • لأننا كما يقول برجسون: نقيم كم العلة في كيفية المعلول (١) •

هذا ما وصل اليه برجسون في تحليله لشدة الاحساس وتمييزه بين كم العلة وكيف المعلول • ولكنه يلاحظ في الحالة الاصلية كثرة من الوقائع

---

(١) برجسون : معطيات الشعور المباشرة ص ٣١ .

النفسية البسيطة ، فيعكف على دراسة هذه الكثرة الباطنية ليبين لنا أنها كثرة كيفية تقوم في الزمان وتختلف من ثمة عن الكثرة العددية التي تحدث في المكان ، لأنه حسب رأيه يوجد نوعان متباينان من الكثرة : كثرة الأشياء (١) المادية التي تؤلف مباشرة عددا من الأعداد وكثرة الوقائع الشعورية التي لا تأخذ شكل العدد دون وساطة تمثيل رمزي يدخل فيه المكان حتما . فنحن لا نعتبر المشاعر والاحساسات والأفكار الا بعد أن نتمثلها وحدات متشابهة تملأ محلات متمايزة من المكان . هكذا نفعل مثلا عندما نسمع وقع أقدام في الشارع فنتمثل الشخص السائر ونتمثل كل صوت من الاصوات المتتابعة يحل في نقطة من المكان حيث يضع قدمه . ونعد احساساتنا في المكان ذاته الذي تصطف فيه عللها المحسوسة . وهكذا نفعل أيضا عندما نسمع ضربات جرس من بعيد فنتمثله في المكان يتردد ذهابا وايابا ، أو نتمثل الأصوات المتتابعة في مكان خيالي ، ولكننا اذا حاولنا أن نغض الطرف عن هذا التمثيل الرمزي ، والتفتنا الى شعورنا الداخلي ، لتبينا أن ضربات

---

(١) برجسون : معطيات الشعور المباشرة ص ٦٥ .

الجرس التي تصلنا متعاقبة في الزمان تنتظم فيما بينها وتتداخل ، كأنها لحن موسيقي يحدث في الشعور ايقاعا خاصا • اننا عندئذ لا نعتبر الأصوات ولا نعدها في أي محيط متجانس ، وانما نكون ما نسميه كثرة غير متمايزة ، ونشعر بالتأثير الكيفي الذي تطبعه فينا كثرة هذه الاحساسات • ان هذه الاحساسات تنتظم وتتداخل فتزيد ثروتها أكثر وأكثر • انها تمتزج بثروة الأنا النامية وتتدفق مع أحوال الشعور المتعاقبة المتصلة •

وتلاحظ أن هناك مجالين مختلفين للكثرة : مجال هو كثرة حدود نعتبرها أو نتصورها قابلة للعد فنرصها في المكان ، ومجال آخر هو الكثرة الشعورية التي نتبينها في توالي حالاتنا تعاقبا زمانيا متصلا • المجال الأول هو المكان الذي تنتشر عليه أحوال النفس ، والمجال الثاني هو الزمن الذي تتعاقب معه أحوال النفس • ويطلق برجسون على هذا الزمن الذي هو مجال الشعور والذي يتميز بالاتصال والتداخل المستمرين اسم الديمومة • التي يرى أننا نقيسها وأننا نقسمها الى أجزاء متعاقبة تتعاقب معها حالاتنا الشعورية متمايزة بعضها عن بعض • ولكن الديمومة التي نتصورها

على هذا النحو كأنها وسط متجانس ليست في الواقع الا تصورا سخيفا ناشئا عن ادخالنا فكرة المكان في مجال الشعور الخالص (١) ٠

فالمكان كما يراه برجسون وسط متجانس وخال من أي تنوع في الكيف ٠ والأشياء الحالة في مكان تؤلف كثرة مرصوصة متمايزة وخالية من أي تداخل ، بحيث يمكننا أن نضع بينها فواصل وأن نعدها ونحدد مقدارها ٠ فاذا ما تسربت فكرة الوسط المتجانس الى مجال الشعور الخالص وأقحم المكان في الديمومة المحضة لم تعد ثمة ديمومة حقيقية وانما تصبح مزيجا من فكرتي الزمان والمكان يصح أن نسميها (٢) « الزمان المكاني » ٠

وبذلك نستطيع كما يرى برجسون أن نحصل على تصورين مختلفين للديمومة : التصور الاول خالص من كل اختلاط ، والتصور الثاني تتسرب اليه خلسة فكرة المكان ٠ فاذا كنا قد ألفنا أن نرص حالاتنا الشعورية وندركها متقاربة لا متداخلة

---

(١) برجسون : معطيات الشعور المباشرة ص ٧٤ .
(٢) المصدر نفسه ص ٧٥ .

بحيث يتخذ التعاقب شكل خط مستمر أو شكل سلسلة تتلامس حلقاتها دون أن تتداخل • ونعبر هكذا عن الديمومة بالامتداد ، فان التصور الأول للديمومة الخالصة يمكن كذلك أن ينكشف لنا خلال الصيغة التي يتخذها تعاقب حالاتنا الشعورية حين نترك حياتنا تنساب ونحجم عن اقامة فاصل بين الحالة الحاضرة والحالات السابقة •

وفي نهاية تحليل برجسون لكل ما يتصل بالزمان والمكان ، والانتقال من حالة نفسية الى حالة أخرى، يكتشف أن الديمومةالتي تظهر تحتالزمن المتجانس والتي نتبين فيها ـ بعكس هذا الزمن المتجانس ـ تداخلا نفسيا وجدة مستمرة لا تحتمل في سيلانها وتدفقها رجعة الى الماضي وعودة ظروف بعينها • اذ أن تحت الديمومة المتجانسة ، التي هي رمز امتدادي للديمومة الحقة ، يمكن علم النفس حين يتوخى الانتباه أن يكتشف ديمومة تتداخل لحظاتها غير المتجانسة ، كما يمكنه أن يستشف تحت الكثرة العددية للحالات الشعورية كثرة كيفية وأن يرى تحت الأنا التي تتميز بالحالات المحددة أنا أخرى يقوم تعاقبها على الامتزاج والتنظيم (١) •

(١) برجسون : التطور الخالق ص ٢ .

ولما كنا في أغلب الأحيان لا ننظر الا لهذا الرمز الامتدادي ، أو الزمن المتجانس ، فبمقدورنا كذلك أن نغوص في أعماق باطننا ، وفي صلب أحوالنا الداخلية ، حيث نشاهد ديمومتنا ونشعر بتغيرنا المستمر .

برجسون والحرية :

ينطلق برجسون بنظرته الى الحرية ، أنها يجب أن تبدأ بممارسة الفيلسوف لها ، ليتحرر من التصور العلمي - وليست هذه النظرة كما تبدو لنا لأول وهلة سوى محاولة سلبية تقف عند مستوى المنهج وطريقة التفكير فحسب ، أو تفترض مجرد الرفض والانكار ولا ترقى الى تلك الحرية الايجابية الفعالة .

ولكننا نلاحظ أن فلسفة برجسون لم تنطلق من هذه الحرية السالبة الا من حيث انها تقودنا الى حرية ايجابية حقيقية ، حيث تكشف لنا عن الزمن الحقيقي مجال الفعل الحر ، ومستوى التحرر الذي

---

(١) برجسون : معطيات الشعور المباشرة ص ٩٥ .

يدل على قدرة حقيقية ايجابية تتطلب جهدا شاقا متواصلا • انهـا تقتضي أولا أن نتخلص من التصورات العلمية وكذلك من التصورات العامية المتأثرة بها • وبذلك نتخلص من العادات العقلية ، ومن العادات الاجتماعية ، وهي في الحالتين عادات نفعية عملية ، أو هي عادات صناعية خلقتها مطالب العمل • وهي تقتضي أن نتخلص من لغتنا الدارجة وألفاظنا المنتشرة ، وهي كذلك لغة اقتضتها مطالبنا في الحياة العملية • واذا تمكنا من التخلص من هذه الأمور استطعنا أن ندخل الى ميدان النفس الحق ، وأن نعود الى حياتنا الباطنة لنتابعها في ديمومتها وحريتها (١) •

ان العلم والمجتمع واللغة كلها قاصر على ادراك المكان والمادة ، وعاجز عن تصور الحياة والروح ، وهي حين تتناول النفس تجعل منها شيئا جامدا وقابلا للتحليل والتجزئة والقياس ، فهي اذن تفقد النفس حركتها وصيرورتها وديمومتها •

ولما كان الفيلسوف هنري برجسون قد هدف من وراء نظرته الى الحرية أن يخلص الفكر الفلسفي

---

(١) برجسون : معطيات الشعور المباشرة ص ١٠٧ .

من هذه الآراء والصيغ اللغوية ، والعمل على تعبيد الطريق لاكتشاف الحرية بمفاهيمها الايجابيـــة ، وتحديد ماهيتها ، ومنطلقاتها العقلانية ، فقد ثبت لدينا أن مرحلة التحرر والتخلص من مقتضيـات العلم والمجتمع واللغة ، ليست سوى مرحلة سلبية تنظم وتعد لاستقبال الحرية الايجابية •

ولكن الانعتاق من نير مقولات العلم والمجتمـع واللغة ليس من الأمور الميسرة السهلة ، وانما هي من المشاكل العويصة المعقدة - لأن المقولات العلمية كما نعلم خاصة بالمادة ، وهي لا تفسر الا ما هو ممتد في المكان ، ونحن متجهون وفق مطالب العمل وضرورات الحياة الى هذا المجال المادي كي نعمل في هذه المادة • فتفكيرنا اذن ينطبع بطابع عملي نفعي ، وتقتصر وظيفته على ادراك العالم المادي• أما اذا أردنا أن نتخلص من هذه المقولات العلمية ، فان ذلك يفرض أن نتحرر من اتجاهنا العلمي وأن نعود بأنفسنا عن مجال العقل الطبيعي ، وهو المجال المادي • فالتخلص اذن من المقولات العلمية هـــو ممارسة حقة لقدرة الانسان على التحرر ، وهـــو يدل على حرية حقيقية تقتضي بذل الجهد والطاقة ،

لينصرف الانسان عن عاداته العملية ، وأن يرتفع فوق حياته المادية ٠

ولا يتطلب التخلص من المقولات الاجتماعية ، التي نخضع لها ، ومن الصور اللفظية التي نصوغ فيها أفكارنا ، أن نبذل نفس الطاقة ، ويدل بالمثل على ممارسة الحرية ، لأنه يدل على تحرر الفكر الفلسفي من أسر العادات الاجتماعية ، ومن أسر اللغة ٠

ويمكننا في ضوء هذه المعطيات أن نوجز مفاهيم الحرية في فلسفة برجسون بأنها التحرر من سلطة العلم والمجتمع واللغة ٠ باعتبار أن الحرية لدى برجسون لا يمكن أن تكون حقيقية الا اذا بدأت بالتحرر من مقتضيات الحياة العملية ٠ واذا كان هذا التحرر يفرض أن نبذل الجهد ، وأن نتحول عن ميلنا الطبيعي ، فان ذلك يعني أنه فعل ايجابي ارادي ٠ انه اذن حرية ايجابية وليس موقفا سلبيا٠

برجسون واكتشاف الحرية :

يبدو أن برجسون الذي عودنا في فلسفته عندما

يريد أن يتطلع الى أي مشكلة فلسفية أن يبدأ بنقد تحليلي للمواقف والنظريات التي كانت سائدة عند العلماء والفلاسفة ، والتي تجسد أفكارهم ومنطلقاتهم العلمية ، وتعبر عن المظاهر المتنوعة لمذاهبهم • ففي مسألة الحرية يعمد برجسون الى توجيه النقد لمذاهب الجبريين في صورها المختلفة ، كما يحلل كذلك الآراء التي قال بها خصوم الجبرية أنفسهم ، ليصل بدقة واتزان الى القول بحرية مختلفة تساير الشعور في ديمومته وابداعه المتصل •

وأول صور المذاهب الجبرية التي ينقدها برجسون ويحلل مرتكزاتها ، هي الجبرية الفيزيقية التي كانت سائدة في ذلك العصر ، والتي يرى برجسون أنها ترتبط ارتباطا وثيقا بالنظريات الآلية في المادة • والتي تتمثل الكون ككتلة من المادة ، يرى فيها الخيال جزئيات وذرات تتحرك حركات مختلفة (١) ، بحيث يمكننا أن نرد الى هذه الحركات جميع المظاهر الطبيعية والتفاعلات الكيميائية وكيفيات المادة التي تدركها حواسنا ، مثل الحرارة والصوت والكهربائية ، وربما الجاذبية

(١) برجسون : معطيات الشعور المباشرة ص ١٠٨ .

كذلك • وبما أن المادة التي تدخل في تركيب الاجسام العضوية تخضع لنفس القوانين ، فاننا لن نجد شيئا آخر ـ في الجهاز العصبي مثلا ـ سوى جزئيات وذرات تتحرك وتتجاذب ويدفع بعضها بعضا • فاذا كانت جميع الاجسام ، سواء فيها العضوي أم غير العضوي ، تعمل وتتفاعل هكذا فيما بين أجزائها الأولية ، فمن الواضح أن الحالة الجزيئية للدماغ في لحظة ما تتغير بمقتضى الصدمات التي يتلقاها الجهاز العصبي من المادة المحيطة به ، بحيث يمكننا أن نحدد الاحساسات والعواطف والافكار التي تتلاحق فينا بأنها نتائج آلية تصدر عن اجتماع الصدمات التي نتلقاها من الخارج مع الحركات الموجودة من قبل في ذرات المادة العصبية • ولكن من الممكن أيضا أن تحدث الظاهرة العكسية : وذلك لأن الحركات الجزيئية التي تدور في الجهاز العصبي غالبا ما ينجم عنها حين تتركب فيما بينها أو مع غيرها من الحركات رد فعل ازاء العالم المحيط بنا : ومن هنا تكون الحركات الانعكاسية وتكون أيضا الأفعال التي تسميها أفعالا حرة أو ارادية • فاذا كنا نفترض أن قانون بقاء الطاقة انما هو قانون ثابت ، فانه لن توجد أية ذرة سواء في الجهاز

العصبي أم في الكـون بأسره ، لا تكون محـددة الوضع (١) بمقتضى مجموع الافعال الآلية التي تؤثر بها الذرات الأخرى على هذه الذرة • ومن هنا فان عالم الرياضة الذي يمكنه أن يعرف وضع الجزئيات والذرات في أي جهاز عضوي بشري وفي لحظة معينة ، والذي يعرف كذلك وضع جميـع ذرات الكون وحركة هذه الذرات التي يمكن أن تؤثر على هذا الجهاز ـ مثل هذا الرياضي يستطيع أن يحسب بدقة متناهية الأفعال الماضية والحاضرة والمستقبلة للشخص الـذي يملك هـذا الجهـاز العضوي ، كما نتنبأ بأي ظاهرة فلكية •

ويخلص برجسون الى أن الجبرية الفيزيقيـة تبغي أن تطبق على الظواهر الفسيولوجية عامـة والعصبية خاصة قانون بقاء الطاقة ، كونها ترى أن هذه الظواهر يمكـن تحديدها سلفا بموجـب معرفتنا للأوضاع التي تتخذها كل ذرة من ذرات المادة المخية •

ويذهب برجسون حتى لو افترضنا امكان هذه

---

(١) برجسـون : معطيات الشعور المباشرة ص ١٠٩ .

المعرفة ، وتمكنا أن نحدد أوضاع هذه الـذرات واتجاهها وسرعتها في كل لحظة من لحظات الديمومة، فان هذا لا يعني أبدا بأن حياتنا النفسية تخضع لنفس القضاء ، لأنه ليس هناك ما يؤكد أن كل حالة مخية معينة يترتب عليها ضرورة حالة نفسية محددة • واذا كنا نلاحظ في بعض الحالات توازيا بين بعض الظواهر الفسيولوجية والحالات النفسية، الا أن مثل هذا التوازي يقتصر على حالات نادرة ، وبصدد وقائع يعترف الجميع أنها مستقلة تمـام الاستقلال عن الارادة ، فلا يجوز لنا أن نعممه على جميع الحالات النفسية •

ويقول برجسون : اذا نظرنا في قانون بقـاء الطاقة الذي تعتقد به الجبرية الفيزيقية ، وجدنا أن قيمته لا تعود في نهاية الأمر الى ضرورة اقامة العلم ، وانما الى الجبرية النفسية التي تحاول أن تثبت ذاتها بالالتجاء الى العلوم الطبيعية • فنحن نحاول أن نجعل من هذا القانون الذي يبدو أنـه ينطبق على الظواهر الفيزيقية الكيمائية فحسب ـ تحاول أن نجعل منه قانونا كليا عاما ينطبق كذلك على الظواهر السيكولوجية • ولكننا اذا لاحظنا أن هذا القانون ليس هو القانون الوحيد الممكن ، وأن

الاستغناء عنه لا يفقد العلوم الطبيعية دقتها الهندسية ، أدركنا أنه لا يجب أن نغالي في تقدير قيمته • هذا وليس ثمة ما يدل على أن دراسة الظواهر الفسيولوجية بصفة عامة ، والظواهر العصبية بصفة خاصة لن تكشف لنا عن طاقة جديدة لا تخضع للقياس •

وأن أي تطبيق لقانون بقاء الطاقة انما يتضمن اهمالا لتأثير الزمن • فاذا كنا نعتقد أن ليس للزمن أي تأثير في ميدان المادة الجامدة ، فان هذا التأثير أمر لا شك فيه في ميدان الحياة ، حيث تعمل الديمومة في الكائن الحي كما تعمل العلة ، ويستحيل أن يعود الكائن الحي بعد مضي فترة من الزمن الى ما كان عليه من قبل • والأمر أكثر وضوحا وتأكيدا حينما نكون بصدد الشعور : فهنا يستحيل أن يظل الاحساس هو عينه ، أو أن يرتد الى الوراء ، وانما هو يقوى ويتضخم بسبب ماضيه •

ويرى برجسون أنه اذا كانت النقطة المادية كما تفهمها الميكانيكا تظل في حاضر أبدي (١) ، فان

---

(١) برجسون : معطيات الشعور المباشرة ص ١١٦ .

الماضي قد يكون حقيقة بالنسبة للأجسام الحية ، وهو لا شك حقيقة أكيدة بالنسبة للكائنات الشاعرة • لهذا لا ينبغي أن نعمم قانون بقاء الطاقة على الحياة النفسية ، لأن هذه الحياة النفسية في تغير مستمر وتقدم متصل ، من شأنه أن يضيف الماضي الى الحاضر الجديد ، فيمتنع مع هذه الاضافة أن يظل الشعور كما هو أو أن يرتد الى الوراء •

والخطأ الذي وقعت فيه الجبرية الفيزيقية حسب رأي برجسون هو خلطها بين العالم المادي الخارجي وبين العالم النفسي الباطني • ان العالم الأول يحتمل أن نطبق فيه قانون بقاء الطاقة لأن الزمن ينزلق فوقه دون أن يبدل فيه أو يطبعه بشيء منه • أما العالم الثاني فلا يحتمل اطلاقا مثل هذا التطبيق ، لأن الزمن يعمل فيه ويطبعه بأثره على نحو متجدد متصل • فاذا كانت الجبرية الفيزيقية قد أهملت هذا الفارق الأساسي بين العالم الخارجي والعالم الباطني ، أو بين الزمن الآلي والديمومة الحقيقية ، وحاولت أن تعمم قانون بقاء الطاقة على الظواهر النفسية ، دون أن يكون لدينا من هذه الظواهر ما يؤيد ذلك ، فان نفس هذه المحاولة تعود باعتقاد برجسون الى تحاصل

ميتافيزيقي يهدف الى تقوية الجبرية السيكولوجية، والى اكسابها شيئا من الدقة ٠

ويلاحظ برجسون أن الجبرية السيكولوجية تعود بنظرياتها الى مذهب التداعي ، الذي يعتقد بأن الحياة الشعورية ليست سوى مجموعة من الحالات المتمايزة ، كل منها معلول لما سبقه وعلة لما يلحقه ٠ وفضلا عن ذلك فاننا نستطيع في أي لحظة من لحظات الشعور المتعاقبة أن نحلل حياتنا العقلية الى مجموعة من البواعث المختلفة ، حتى اذا عرفنا هذه البواعث في أية لحظة من لحظات حياتنا أمكننا أن نتنبأ بما سيترتب عليها من أفعال ، لأن الباعث الأقوى هو الذي يسيطر على غيره من البواعث وهو الذي ينتصر في نهاية الامر ٠ فنظرية أصحاب مذهب التداعي تتصور أن في الامكان أن نجزىء الحياة النفسية الى لحظات منفصلة متمايزة ، وأن نحلل كل لحظة الى أفكار ودوافع تختلف فيما بينها شدة وضعفا ٠ ثم يرون كذلك أن اجتياز الشعور من حالة الى آخرى يتم ويتحدد بمقتضى أقوى البواعث النفسية ٠ فبناء على هذه النظرية تبدو الرغبة والكراهية والخوف

والاغراء كأنها أشياء متمايزة تتنازع ويتغلب فيها الأقوى (١) .

وأول ما يأخذه برجسون على هذه النظرية التي قال بها الجبريون أمثال جون ستيورت مل ، وألكسندر بين ، هو أن البواعث لا تظهر في كثير من الأحيان الا بعد أن نكون قد اتخذنا بالفعل قرارا وصممنا على عمل معين . وهذا يعني أن البواعث ليست الا تبريرا عقليا يأتي لاحقا على الفعل الارادي ، ونحن نعمد الى اختراعه انقاذا لمبدأ الآلية ومراعاة لنظرية التداعي . واذن فليست أفعالنا نتيجة حتمية لبواعث معينة . واذا كانت الجبرية السيكولوجية قد أخطأت فهم العلاقة بين البواعث والفعل ، فانها قد أخطأت كذلك حين تصورت أن في الامكان أن نجزىء الحياة النفسية الى لحظات منفصلة متمايزة ، أو أن نحلل هذه اللحظات المتمايزة الى أفكار مختلفة ودوافع متباينة . فليس هناك في الواقع لحظات منفصلة ، وانما هناك ديمومة متدفقة قوامها التداخل والامتزاج .

---

(١) برجسون : معطيات الشعور المباشرة ص ١٢٥ .

أما الحرية التي يقول بها برجسون ويتصورها فهي عين ديمومة الذات ، لأن الفعل الحر برأيه يصدر في الواقع عن النفس بأجمعها ، وليس عن قوة معينة تضغط عليها أو عن باعث بالذات يتغلب على غيره · يقول برجسون : « مجمل القول هو أننا نكون أحرارا عندما تصدر أفعالنا عن شخصيتنا بأجمعها ، وعندما تعبر عنها ، ويكون بينها وبين هذه الشخصية ذلك الشبه الذي نجده أحيانا بين الفنان وانتاجه (١) ·

واذا كان الجبريون قد وحدوا بين الديمومة والزمن الآلي ، وقالوا بامكان التنبوء بأفعالنا المقبلة ، فان هذا التوحيد بمفهوم برجسون قد أمدهم كذلك بحجة أخرى يؤيدون بها دعواهم · فهم يقررون أن الظواهر النفسية تخضع لقانون العلية كما تخضع الظواهر الطبيعية لنفس القانون · وهذا يعني أن عللا بعينها يمكن أن تظهر في عدة أحوال على مسرح الشعور فتؤدي بالضرورة الى معلولات بعينها · ولكننا اذا عدنا الى التمييز الذي أقمناه بين الديمومة المحضة وبين الزمن الآلي تبينا

---

(١) برجسون : معطيات الشعور المباشرة ص ١٢٩ .

مباشرة أن هناك تغيرا مستمرا في الحياة النفسية ، بحيث لا يمكن أن تتكرر حالتان متشابهتان تمام التشابه ، فكل حالة من هاتين الحالتين تعبر عن لحظة مختلفة من لحظات حياتنا .

يقول برجسون : « بينما نرى أن الموضوع الخارجي لا يتسم بطابع الزمن المنصرم ، وهذا هو ما يتيح للفيزيقي ، رغم تباين اللحظات ، أن يجد نفسه ازاء حالات أولية متشابهة ، فاننا نرى أن الديمومة شيء واقعي بالنسبة للشعور الذي يحتفظ بآثارها ، ولا يحق لنا من ثمة أن نتحدث هنا عن حالات متشابهة ، لأن اللحظة الواحدة لا تظهر مرتين (١) » .

ولما كانت الحالات النفسية لا تتشابه أو تتكرر على مسرح الشعور فانها كذلك لا تؤدي – حين نفترض تكرارها – الى نفس المعلولات . لأن العلة بالنسبة للفيزيقي تنتج دائما نفس المعلول ، أما العلة الباطنية العميقة في نظر عالم النفس الذي لا ينخدع بالتماثل الظاهري ، فانها تنتج معلولها

---

(١) برجسون : معطيات الشعور المباشرة ص ١٥٠ .

مرة واحدة ولكنها لا تنتجه بعد ذلك أبدا . لذلك فقانون العلية لا ينطبق على الحالات النفسية كما يرى الجبريون . وهذا يعني أن العالم النفسي لا يخضع اطلاقا لتلك الحتمية العلمية التي يكشف عنها قانون العلية .

ولو فرضنا أننا قمنا بتحليل مفهوم العلية لاحظنا أنها تقوم على تصورين مختلفين للديمومة . وبموجب التصور الأول نتمثل العلية ـ في الظواهر الطبيعية ـ باعتبارها ارتباطا ضروريا بين العلة والمعلول ، من حيث ان المعلول يشمل العلة ذاتها كما تكون النتائج الرياضية متضمنة في المبدأ الرياضي . وفي هذه الحالة تتحول العلية الى ما يقرب من قانون الهوية الذي يربط الحاضر بالحاضر فقط . ومن ثمة يتلاشى الزمن ولا تعود الأشياء تدوم كما تدوم الذات . ومعنى هذا هو أن الحتمية تصبح قاصرة على العالم الطبيعي ، وتظل الذات ، بمقتضى تميزها بالديمومة ، قوة مستقلة حرة (١) . ولكننا أحيانا نتصور العلية ـ سواء بصدد الظواهر الطبيعية أم الظواهر النفسية ـ باعتبار أن العلة

(١) برجسون : معطيات الشعور المباشرة ص ١٥١ .

لا تستتبع ضرورة حدوث المعلول • ان هذا هو ما نشعر به وما نلاحظه بصدد حالاتنا الشعورية المتعاقبة ، حيث يكون المعلول مجرد فكرة تقتضي ـ لكي تتحقق ـ شيئا من الجهد يسمح لها بالانتقال من الحاضر الى المستقبل • اننا في هذه الحالة نشعر، حتى بعد أن نتجه الى بذل الجهد لانجاز الفعل ، أن هناك مجالا لأن نتوقف عن انجاز ما شرعنا نحوه • فالعلاقة بين العلة والمعلول بصدد هذه الظواهر النفسية ليست علاقة تحديد ضروري • غير أننا نعمم هذا التصور للعلية ، فنرى بالمثل أن العلاقة بين الظواهر الطبيعية ليست علاقة تحديد ضروري، كأن العالم الخارجي يماثل العالم الباطني ، أو كأن كيفيات الأشياء حالات نفسية شبيهة بحالات الذات • ومعنى هذا هو أننا ننسب للظواهر الطبيعية ديمومة مثل ديمومة الذات ونقرر لها حرية مثل حرية الذات •

واذن فأي التصورين لفكرة العلية ينتهي الى تقرير الحرية الانسانية ، سواء أكان الانسان متمتعا بها وحده كما يقضي التصور الأول ، أم كانت الظواهر الطبيعية كذلك متمتعة بها كما يقضي بذلك التصور الثاني •

ومن هذه المنطلقات التحليلية يرفض برجسون مذهب الجبرية النفسية ، ويؤكد أن الصعوبات التي ظهرت في مسألة الحرية ، سواء عند الجبريين أم عند خصومهم ، تعود في نهاية المطاف الى الخلط بين الزمن المتصل الذي هو ديمومة محضة وبين الزمن الآلي الذي نتصوره كالمكان وسطا متجانسا. أما اذا استطعنا أن نتخلص من هذا الخلط ، وأن ننفذ الى صميم الديمومة ، فعندئذ لا بد من أن نكتشف أننا أحرار ، ولا بد أن نشعر بهذه الحرية.

حرية الطمأنينة عند برجسون :

تبين لنا أن الحرية عند برجسون تنطلق من تصوره للزمن الحي أي للديمومة . الذي يعني الاستمرار في الحياة النفسية ، عندما يرتبط الماضي بالحاضر عن طريق الاتصال كما يرتبط الحاضر بالمستقبل ، ويأتي الفعل الحر ثمرة أو نهاية لتطور وتقدم داخلي تلقائي - لهذا يعمد برجسون الى صدور الفعل الحر عن النفس فيشبهه بسقوط الثمرة الناضجة من أمها الشجرة (١) ، ليدل أن

---

(١) برجسون : معطيات الشعور المباشرة ص ١٣٢ .

ليس في عالم النفس خلق من لا شيء ، كما أنه ليس هناك انفصال عن الماضي •

ويعتقد برجسون أنه ليس من شك في أن الماضي بأجمعه يتبعنا في كل لحظة : فكل ما شعرنا به وما فكرنا فيه وما أردناه منذ طفولتنا الأولى قائم هناك ومتجه نحو الحاضر الذي سوف يلحق به • فمن شأن الماضي أن يتقدم ويتراكم ، بحيث يظل محفوظا من تلقاء ذاته ، وبحيث يمتد في الحاضر وتصدر عنه جميع رغباتنا وأفعالنا (١) •

ونلمس أن لهذا الاتصال في الحياة النفسية دلالة هامة : فهو يعني الاقرار بالماضي والاقرار بقيمة هذا الماضي ، من حيث أننا لا ننفصل عنه ، ومن حيث أنه يمثل بأكمله في كل فعل من أفعالنا ، ومن هنا نستنتج أن فلسفة برجسون تمتاز باحترام الماضي ، وباحترام التاريخ ، من حيث ان التاريخ هو تراكم أحداث الماضي • ومثل هذا الاحترام للماضي وللتاريخ يكشف لنا عن طابع الثقة والطمأنينة في أفكار برجسون الفلسفية •فالفلسفة

---

(١) برجسون : التطور الخالق ص ٥ .

التي تقر بالماضي و بالتاريخ انما هي فلسفة مطمئنة خالية من القلق و بعيدة عن التمرد ، والعنف •

ويرشدنا الاتصال في الحياة النفسية الى الاعتراف بالشخصية الانسانية، ولزوم احترام هذه الشخصية، من حيث ان الشخصية هي اتصال ديناميكي حقيقي يقضي بأن يظل الماضي حيا باقيا في الحاضر •

ولا بد من الاشارة الى أن نظرية برجسون في الحركة تؤكد هذا الاتصال في الشخصية ، وترى أن الفعل الحر ينبعث عنها بأكملها ، لقوله : « اننا نكون أحرارا عندما تصدر أفعالنا عن شخصيتنا بأكملها » ونحن قد لاحظنا أن كل فعل من أفعالنا ينضاف الى الماضي و يمتزج به ويؤسس شخصيتنا• فأفعالنا اذن تصدر عن شخصيتنا وفي الوقت نفسه تضيف الى هذه الشخصية • وهذا يعني أن ليس ثمة أي مجال للقلق أو الخوف، وانما هناك ثقة وطمأنينة وتفاؤل • لذلك يمكننا في ضوء هذه المنطلقات البرجسونية في الحرية أن نقول بأنها تبعث الثقة والطمأنينة ، من حيث انها تدل على الاتصال ، ومن حيث ان الاتصال هو في تقدم لا في ركود • ان الماضي ذاته ، باتحاده بحياتنا وبحاضرنا ، يتغير

ويتقدم ، فهو ليس ماضي ركود ، وانما هو ماضي حي يتغير مع حياتنا الشخصية •

ومن المؤكد أن عقيدة برجسون ونظريته في الحرية تذهب الى تأييد الشخصية الحية المتقدمة التي يتحد بها الماضي ويتقدم معها • وعامل الطمأنينة في هذه العقيدة ينبثق من أن التقدم الذي تراه هو تقدم ديناميكي متصل • فالماضي الذي يبقى حيا في الحاضر يركز معالم الشخصية ويمنحها كيانها ، ويساعدها على كل فعل من أفعالها • لذلك لا يكون العمل مسببا للقلق ، لأن الشخصية تشد أزره ، والماضي يدعم خطواته ، فيأتي كما يأتي العمل الفني تجسيدا صادقا لمعالم شخصية صاحبه •

والحرية بمفهوم برجسون ليست سوى حرية مطمئنة تنطلق من الماضي الذي يقودها بأمان واطمئنان الى سواء السبيل ، وهي تبعث الثقة ، كونها تحترم العمل ، وتمنحه قيمة كبرى هي قيمة البقاء : فكل عمل نؤديه لا يفر منا أو يتلاشى ، وانما هو يضيف الى الشخصية ويمتزج بها ويبدل منها • كما يقول برجسون : « ماذا نكون في الحقيقة وماذا تكون أخلاقنا ان لم نكن ذلك الذي تجمع من

تاريخ حياتنا منذ ولادتنا ؟ اننا نرغب ونريد ونعمل بماضينا بأسره (١) » ٠

والفعل الحر بنظر برجسون دليل على الثقة ، أو بالأحرى تجسيدا للثقة ، كونه ينطلق من شخصيتنا الحقيقية ، ويدعم هذه الشخصية ،ويكون فعلها الخاص الذي يحمل طابعها والذي يحق لها أن تطالب بأبوتها له (٢) ٠ وهو باعث على الثقة ، لأن قيمته لا تنحصر في لحظة انجازه ، وانما في بقائه وامتزاجه بالشخصية وتكوين هذه الشخصية٠

وليست الحرية التي عبر عنها برجسون سوى مفهوما من مفاهيم الطمأنينة والثقة ، الذي يرجع الى فكرة الديمومة والاتصال ، ويؤكد في احترام هذه الحرية للماضي وللتاريخ وفي تقديرنا للشخصية الانسانية ، وفي تقريرها لقيمة العمل وخطورته ٠ واذا تطلعنا الى الفعل الحر من حيث هو الثمرة التي ينتهي اليها تغير الذات ونموها الداخلي التلقائي ، تأكد لنا فورا أن مثل هذا الفعل لا يصدر

---

(١) برجسون : التطور الخالق ص ٦ .
(٢) برجسون : معطيات الشعور المباشرة ص ١٣٠

بتاتا عن أي انفصال في الذات • فليس هناك بين الانسان وذاته تجاوز أو انفصال ، وليس هناك أي أزمة بين الانسان وذاته ، وانما هناك ، بعكس ذلك ، ديمومة متصلة دائبة ، وحركة ديناميكية حية مستمرة (١) •

ومن الملاحظ أن برجسون قد جعل من هـذه الديمومة وهذه الحركة الديناميكية مدماكا للفعل الحر ، ودل على أن الحرية الانسانية انما هـي مظهر أصيل لارتباط اللحظات الزمانيـة ارتباطا متينا ، يحفظ للذات كيانها وماضيها ويكفل لهـا نموها وتطورها ، فان نفس هذا الارتباط هـو الذي يفسح لنا المجال لنشاهد في الحرية التي حددها برجسون مظهر ثقة ، ومظهر طمأنينة •

برجسون والصوفية المسيحية :

في أفكار برجسون الفلسفية ، التي عبر عنها في كتابه « ينبوعا الأخلاق والدين » تحليـل شيـق ينطلق من رأيه في الصوفية المسيحية ، فيقـول : « حينما تهتز النفس في أعماقها .بالتيار المزمع ان

(١) برجسون : التطور الخالق ص ٧ •

يجذبها ، تنقطع عن الدوران حول ذاتها مفلتة ، بعض الوقت ، من الناموس الذي يريد أن يشترط النوع والفرد أحدهما الآخر ، بشكل دائرة ، حينئذ تقف النفس مستطلعة كأن صوتا يدعوها ، ثم تستسلم الى ما يحملها رأسا الى الأمام • انها لا تلمح مباشرة القوة التي تحركها ، لكنها تشعر بحضورها الذي لا يوصف ، أو انها تحزره عبر رؤيا رمزية ، فيتدفق عليها سيل من الفرح هو انخطاف بالروح تستغرق فيه ، أو ذهول غبطة يقع عليها : ان الله هنا ، وهي في الله • لقد زال السر ، وتوارت المشاكل • وانقشعت الظلمات ، انه الالهام الرباني • ولكن ، الى متى ؟ (١) كان شيء من القلق يرف على الانخطاف ، ثم انحدر فاستقر عليها كظلها • هذه هي العلامة التي تميز الصوفية الحقيقية من تقليدها ، أو من الاستعداد لها ، وتبين لنا أن نفس الصوفي الكبير لا تقف عند الانخطاف كأنه نهاية مداها ، بل كقسطها من الراحة ، ان شئت ، لكنه مليء بالتأهب لوثبة جديدة الى الامام ، وبتعبير أدق ، نقول : مهما كان الاتحاد بالله عميقا،

---

(١) اندريه كريسون : برجسون ص ١٤١ .

فلن يكون نهائيا الا ساعة يصبح كاملا ، وساعة لا يبقى بين الفكر وموضوع الفكر ، أية مسافة ، وينعدم كل ما كان يفصل بين المحب والمحبوب : هو ذا الله حاضرا ، وهو ذا الفرح الذي لا حد له • ولكن ، ان كانت النفس تستغرق في الله بالفكر والعاطفة ، فان شيئا منها يظل خارجا عن (١) هذا الاستغراق وهذا الشيء هو الارادة : ان عمل النفس يظل منوطا بها ، دائما ، فليست حياتها اذن الهية صرفا حتى الآن • انها تعلم ذلك وتقلق له قلقا غامضا ، وهذا القلق ابان الاستراحة هو ما يميز ما نسميه بالصوفية الكاملة : انه يعبر عن أن الاندفاع كان معدا لأن يبلغ الى أبعد ، وعن أن الانخطاف يشمل خاصتي النظر والتأثر ، بلا ريب ، ولكن تبقى ثمة الارادة التي يجب وضعها ، أيضا ، في الله • حينما يتسع هذا الاحساس حتى يحتل كل المكان ، يسقط الانخطاف وتجد النفس ذاتها وحيدة ، وأحيانا مستوحشة • لقد كانت اعتادت بعض الوقت على النور الساطع وها هي الآن ، في ظلمة لا ترى فيها شيئا ، ذلك لأنها لا تعلم،

---

(١) أندريه كريسون : برجسون ص ١٤٢ .

حتى الآن ، العمل الذي يتحقق فيها بصورة خفية ، بل تشعر بأنها فقدت كثيرا ، ولكن ، وهذا ما لا (١) تعلمه ، لكي تربح كل شيء • هذا هو « الليل المظلم » الذي تحدث عنه كبار الصوفيين والذي ربما كان أدل شيء على حقيقة الصوفية المسيحية : هنا يتهيأ الطور النهائي الذي يميز الصوفية الكبرى • يستحيل وصف هذا التهيؤ النهائي لأن الصوفيين أنفسهم يعجزون عن وصفه • تجهد النفس الصوفية في أن تظهر ذاتها من كل شائبة لكي تكون أداة صالحة في يد الله • كانت تشعر حتى الآن ، بحضور الله ، وتظن أنها تلمحه في رؤى رمزية ، وحتى انها تتحد به في الانخطاف ، غير ان كل ذلك لم يكن نهائيا ، لأنه لم يكن سوى مشاهدة، ولأن الارادة العاملة في النفس كانت تعيدها الى ذاتها وتسلخها عن الله • أما الآن ، فان الله هو الذي يعمل بها وفيها : فالاتحاد تام ، ونهائي ، انه فيض حياة واندفاع عارم لا يحده حد • ان حمية حادثة ، منتشرة في جميع قوى هذه النفس ، تحملها الى ما هو عظيم وتتيح لها ، مهما كانت ضعيفة ،

---

(١) اندريه كريسون : ص ١٤٣ .

أن تحقق بقوة • انها ترى ، على الأخص ، ببساطة، وهذه البساطة التي تشع في أقوالها وفي سلوكها تقودها عبر تشابكات يخيل لك انها لا تعيرها اهتماما ، فكأن علما غريزيا أو بالأحرى كأن براءة مكتسبة تلهمها مباشرة ما يجب أن تقول ، وما يجب أن تفعل • غير ان الجهد يظل لازما ، وكذلك المكابدة والثبات ، لكنهما يأتيانها عفوا وينتشران في نفس فاعلة ومفعولة معا ، أي في نفس تطابق ارادتها النشاط الالهي : انهما يمثلان انفاق طاقة عظمى ، غير ان هذه الطاقة تمنح لها حال طلبها اياها ، لأن فيض الحيوية الذي تستمده يتدفق من ينبوع هو ينبوع الحياة ذاتها • لقد بعدت الرؤى ، الآن ، لأن الالوهة لا تنكشف من الخارج لنفس ممتلئة منها (١) • غير ان الشخص الصوفي هذا لا يبدو متميزا تميزا جوهريا من الاشخاص الذين يعيش ما بينهم ، هو وحده يشعر بتغير يرفعه الى مصاف المفعولين بالنسبة الى الله ، والفاعلين بالنسبة الى البشر ، لكنه لا يفتخر بهذا الارتفاع ، بل يزداد تواضعا أمام الله •

---

(١) اندريه كريسون : برجسون ص ١٤٤ •

كان المتصوف ، الذي توقف انخطافه المشاهد ، يتهيأ في الباطن • لقد كان يشعر ، بعد أن انحدر من السماء الى الأرض ، بالحاجة الى تعليم البشر ان العالم الذي نراه بأم عين الجسد ليس هو العالم الوحيد الحقيقي ، بل يوجد عام آخر اختبر أحدهم حقيقته ، ورأى ، ولمس ، وعلم • بيد ان شيئا من القلق والتردد كان يعتري ذلك الاندفاع الى التبشير: كيف السبيل الى نشر يقينه الاختباري بواسطة الخطابات والمواعظ ؟ بل كيف ، بالأحرى ، السبيل الى التعبير عما لا يستطاع التعبير عنه ؟ لقد شعر بالحقيقة تجري في عروقه من ينبوعها كقوة فاعلة ، ولن يستطيع أن يمنعها من التدفق حوله ، كما لا تستطيع الشمس أن تمنع نورها من السطوع ، ولكن ، لن تكون الخطابات رسل تلك الحقيقة ، لأن الحب (١) الذي يتفجر في قلب المتصوف لم يعد ، فقط ، حب انسان لله ، بل ، بالأحرى ، حب الله لجميع البشر ، ولا هو الاخاء الذي يوصي به الفلاسفة باسم العقل بناء على أن جميع البشر هم من جوهر عاقل واحد : صحيح أننا ننحني باحترام

---

(١) نفس المصدر ص ١٤٥ .

أمام مثال الفلاسفة الأعلى هذا ، الذي يجب على كل فرد أن يحققه على قدر امكانه ، ولو بغير حماسة كبرى ، الا اذا هو استنشق في احدى زوايا حضارتنا العطر العلوي الذي تركته ، هناك ، الصوفية السماوية • هل كان الفلاسفة أنفسهم وضعوا بهذه الثقة الكبرى ، مبدأ اشتراك جميع الناس في جوهر سام ، هذا المبدأ الذي يظهر متباينا مع الواقع الاختباري ، لو لم يوجد صوفيون يضمون البشرية جمعاء ، في حب واحد لا يتجزأ ؟ اذن ، لسنا ، هنا ، في مجال هذا الاخاء الذي كونوا فكرته لكي يجعلوا منها مثلا أعلى ، ولا في مجال تجسيم انعطاف غريزي يميل الانسان نحو الانسان (١) • ثم يحق لنا السؤال ، في صدد هذه الفكرة الأخيرة ، عما اذا كان وجد ، أو يوجد مثل هذه الغريزة الا في مخيلة الفلاسفة لأسباب توازنية ، أو منطقية : فقد رأوا العائلة ، ثم الوطن ، ثم البشرية ، طبعا ، كما يحب وطنه وعائلته ، بينما الواقع يبين ، حتى الآن ، ان التآلف العائلي ، والتآلف الوطني الاجتماعي ، هما الوحيدان اللذان

---

(١) أندريه كريسون : برجسون ص ١٤٦ •

ارادتهما الطبيعة والغرائز ، وان الغرائز الاجتماعية المتعددة تدفع المجتمعات الى التنافس والتناحر أكثر مما تدفعها الى الاتحاد وتكوين بشرية واحدة • قد تفيض العاطفة العائلية والوطنية ، عرضا ، وتجاوز حدودها الطبيعية لأسباب كمالية ، ولكن الى حد ، أما العاطفة التي يحب الصوفي بها البشرية ، فلا حدود لها ، ليس هذا الحب امتدادا لغريزة ، ولا ينجم عن تفكير بشري : انه يطابق حب الله لأعمال يديه ، هذا الحب الذي أوجد كل شيء ، والذي هو مفتاح سر الخليقة • لذلك يبدو حب المتصوف للبشرية كأنه يريد ، بعون الله ، أن يكمل خلق النوع البشري أو ، بتعبير آخر ، كأن اتجاهه اتجاه (١) الحياة ذاتها في اندفاعها الحيوي ، وتطورها الخلاق • انه هذا الاندفاع ذاته أودع جذريا أناسا يريدون أن يطبعوا به البشرية ، جمعاء ، وأن يحولوا ، بتناقض يتحقق، الى جهد خلاق هذا الشيء المخلوق الذي يدعى النوع البشري •

---

(١) اندريه كريسون : برجسون ص ١٤٧ .

التعرف الكاذب عند برجسون :

كتب الفيلسوف الافرنسي هنري برجسون مقالة في « المجلة الفلسفية » الصادرة في كانون الأول سنة ١٩٠٨ عالج فيها ذكرى الحاضر والتعرف على الكاذب فقال : « ان الوهم الذي سنلقي عليه الآن بضع لمحات نظرية أمر معروف جدا : يتفق لامرىء ، بغتة ، وهو يرى مشهدا ، أو يشترك في حديث ، أن يعتقد أنه شاهد من قبل ما يشاهد الآن ، وسمع من قبل ما يسمع الآن ، ولفظ من قبل العبارات التي يلفظ ، وأنه كان يومئذ في نفس المكان ، على نفس الأوضاع ، يشعر ويدرك ويفكر ويريد على نفس المنوال ، أي يعيش مرة ثانية بضع لحظات من حياته الماضية بأدق تفاصيلها . ويكون الوهم في بعض الأحيان من الكمال بحيث يخيل الى المرء في كل لحظة أثناءه أنه على وشك أن يتنبأ بما سيقع ، وكيف لا يعرفه مقدما ما دام يحس انه سيكون عما قليل عارفا له من قبل ! وليس نادرا أن يشاهد العالم عندئذ في صورة خاصة ، كأنه يراه في حلم ، ويصبح المرء غريبا عن نفسه ، ويوشك أن تزدوج شخصيته ،

فيقف من أقواله وأعماله موقف المشاهد (١) •

ان هذا الوهم الأخير ، اذا ذهب الى أقصاه وأصبح « تفككا في الشخصية » قد يكون ناتجا عن غير التعرف الكاذب • ولكنه ينتج عن التعرف الكاذب أيضا • هذا الى أن هذه الأعراض تكون قوية وتكون ضعيفة • وبدلا من أن يرتسم الوهم في صورته الكاملة ، نراه في معظم الأحيان على حالة مخطط • ولكن ، سواء أكان مخططا أم رسما كاملا ، فان له هيئته الاصلية على كل حال (٢) •

وبين أيدينا كثير من الملاحظات عن التعرف الكاذب ، وهي تتشابه تشابها بارزا ، حتى انها مصوغة في عبارات واحدة في كثير من الأحيان • ومن بينها هذه الملاحظة الذاتية التي تفضل أديب بارع في دراسة نفسية ، فكتبها لنا وهو يعتقد انه الوحيد الذي يعاني التعرف الكاذب ، لأنه لم يسمع به من قبل • ويتكون وصفه من عشر جمل نكاد نقرؤها هي نفسها في كافة الملاحظات التي نشرت قبل ذلك •

---

(١) برجسون : الطاقة الروحية ص ١٠٠ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٠١ .

وقد هنأنا أنفسنا في أول الأمر على أننا وقعنا فيها على تعبير جديد على الأقل ، اذ قال صاحبها : ان ما يسود هـذه الحادثـة هو احســاس « بضرورة لا مناص منها » حتى لكأنه ليس في العالم أية قوة تستطيع أن تحول دون ما سيأتي من أقوال وأفعال. ولكننا ما كدنا نعود الى قراءة الملاحظات التي جمعها مسيو برنار لوروا (١) حتى وقعنا في احداها على هذا التعبير نفسه اذ يقول صاحبها : « كنت أشهد أعمالي ، وكانت ضرورية لا مناص منها » . فليت شعري هل ثمة وهم يعادل هذا الوهم في ثبات معالمه على هذا النحو الواضــح ! ولا يجب أن نشمــل بالتعرف الكاذب بعض الأوهام التي تشبهه ببعض السمات ، لكنها تختلف عنه في مظهرها العام ، فقد وصف مسيو آرنو في عام ١٨٩٦ حالة ملحوظة كان يدرسها منذ ثلاث سنين ، فقال : كان الشخص خلال هذه السنين الثلاث يعاني وهم التعرف الكاذب ، أو يعتقد أنه يعانيه ، فكان يخيل اليه أنه يعيش حياته كلها مرة ثانية (٢) . وليست هذه الحالة بالوحيدة.

---

(١) وهم التعرف الكاذب ص ١٧٦ .

(٢) آرنو : حالة وهم : « المرئي من قبل » الحوليات الطبية

ففي اعتقادنا أنه يجب تقريبها من حالة سابقة درسها بيك (١) ومن ملاحظة لاحظها كربلن (٢) وكذلك ملاحظة فوريل (٣) • واذا قرأنا هذه الملاحظات شعرنا بأنها تتحدث عن شيء يختلف عن التعرف الكاذب ، فليس الأمر فيها أمر شعور مباغت قصير يدهش بغرابته ، حتى أن الشخص يرى أن ما يشعر به أمر عادي سليم ، بل انه ليحتاج أحيانا الى هذا الشعور ، فيسعى اليه اذا أعوزه ، ويظنه عدا ذلك أكثر استمرارا مما هو في الواقع •

واذا أنعمنا النظر في هذه الملاحظات اكتشفنا وجود اختلافات أخرى عميقة غاية العمق • فالذكرى الوهمية في التعرف الكاذب لا تكون أبدا محدودة في نقطة من الماضي ، بل تشغل ماضيا غير معين ، تشغل الماضي على وجه العموم • أما هنا فان الاشخاص يروون لك تجاربهم السابقة المزعومة بتواريخ محدودة في معظم الأحيان • فهم فريسة وهم ذاكري حقيقي • ويجب أن نلاحظ الى ذلك ، ان أولئك جميعا ذوو لوثة ، فالشخص الذي تحدث عنه بيك ،

---

(١) مجلة الطب العقلي ، جح ١٨٧٦ ، ص ٥٦٨ — ٥٧٤ .

(٢) مجلة الطب العقلي ، جح ١٨ ، ١٨٨٧ ، ٤٢٨ .

(٣) فوريل : الذاكرة وامراضها ص ٤٤—٤٥ .

وأولئك الذين تحدث عنهم فوريل وآرنو قد تملكتهم أفكار الاضطهاد الهذيانية ، والشخص الذي تحدث عنه كربلن شخص موسوس، موهوم السمع والبصر. ولعل من الواجب أن نقرب اختلال هؤلاء العقلي من الاختلال الذي وصفه كوريا تحت اسم « بارامنزيا التكرار » والذي أسماه بيك نفسه ، في بحث أحدث باسم « شكل جديد من البارامنزيا » فالشخص في هذا المرض يتوهم أنه عاش حياته الحالية من قبل عدة مرات . وهذا هو بعينه الوهم الذي يتوهمه مريض آرنو .

وهناك مسألة أدق من هذه أثارتها دراسات بيير جانية في الوهن النفسي ، يرى جانيه ، خلافا لمعظم المؤلفين ، أن التعرف الكاذب حالة مرضية واضحة ، نادرة الى حد ما ، غامضة وغير متميزة على أي حال (١) ، وان من التسرع الشديد أن نعتبره وهما خاصا بالذاكرة ، وأن المسألة في الواقع مسألة اختلال أعم ، تضعف فيه لدى المريض « وظيفة الواقع » ، فلا يقوى على أن يحيط بالراهن احاطة

---

(١) بيير جانيه : « امراض الحصار والوهن النفسي » ج١ ص ٢٨٧ .

كاملة ، ولا يستطيع أن يقول على وجه الدقة أهذا من الحاضر أم من الماضي أم من المستقبل أيضا ، وانما يقرر انه من الماضي بتأثير الأسئلة التي تلقى عليه • أما ان الوهن النفسي الذي تعمق جانيه دراسته كثيرا ، تربة يمكن أن تنبت فيها طائفة من الامراض ، من بينها التعرف الكاذب ، فليس من ينكر عليه ذلك • بل لن ننكر أيضا صفة الوهن النفسي الذي يتصف به التعرف الكاذب •

ولكن لا شيء يبرهن على أن هذه الظاهرة حين تكون واضحة كاملة ، منحلة بوضوح الى ادراك وذكرى ، وحين تقع الأناس ليس فيهم أي مرض آخر ، لا شيء يبرهن على أن لها نفس البنية الداخلية لتلك التي ترتسم في صورة غامضة على حالة اتجاه أو امكان لا أكثر ، لدى أشخاص تتجلى فيهم طائفة من أعراض الوهن النفسي •

ولنفرض في الواقع أن التعرف الكاذب ، بالمعنى الأصلي للكلمة ـ وهو دائما اضطراب عارض لا خطر له ـ وسيلة ابتدعتها الطبيعة حتى تحصر في نقطة معينة ، وتقصر على بضع لحظات ، وتجعل سهل الشفاء ، عجزا لو أصاب مجموع الحياة

النفسية لكان هو الوهن النفسي • اذا تصورنا ذلك وجب أن نتوقع لهذا التركيز في نقطة واحدة أن يهب للحالة النفسية الناتجة من الدقة والتعقد والفردية بوجه خاص ، ما ليس لها عند المرضى بالوهن النفسي عامة ، أن يهب لها من ذلك ما يقلب العجز الأساسي المصابة به الى تعرف كاذب ، أو الى أية ظاهرة أخرى مرضية أو غير عادية •

وقد يكون لهذا الوهم وجود نفسي متميز ، خلافا لما هو الأمر عند المرض بالوهن النفسي • واذا كنا ، من جهة أخرى ، لا نرفض شيئا مما يقال لنا عن هذا الوهم لدى المرضى بالوهن النفسي ، فان ذلك لا يمنع من أن نتساءل : لماذا وكيف كان الشعور « بالمرئي من قبل » ـ وهو كثير فيما نعتقد ـ يظهر على وجه أخص في الحالات التي يقررون فيها تقريرا واضحا وجود ادراك حاضر وادراك ماض هو هذا الادراك الحاضر عينه • ولا يجب أن ننسى أن كثيرا ممن درسوا التعرف الكاذب مثل : (جنسن، كريبلن ، بوناتيلي ، ساندر ، آنجل ، وغيرهم) كانوا يعانونه هم أنفسهم ، فلم يقتصروا على جمع ملاحظات ، بل سجلوا ما كانوا يشعرون به تسجيل العالم المحترف • وقد اتفق هؤلاء جميعا على

وصف الحادثة كأنها استئناف واضح للماضي • كأنها حادثة ثنائية ـ ادراك من جهة ، وذكرى من جهة أخرى ـ لا حادثة ذات وجه واحد • لا حالة يظهر فيها الواقع في الفضاء فحسب ، منفصلا عن الزمان ، ذكرى أو ادراكا على السواء • وهكذا فاننا بدون أن نضحي بشيء مما أطلعنا عليه بيير جانيه بصدد المرض بالوهن النفسي ، ينبغي أن نبحث عن تفسير خاص لظاهرة التعرف الكاذب بالمعنى الأصلي للكلمة • فأين نجد هذا التفسير ؟

ربما قلنا لأول مرة ، بأن التعرف الكاذب ينشأ عن التوحيد بين الادراك الحالي و بين ادراك سابق يشبهه فعلا بمضمونه ، أو يشبهه بلونه العاطفي على أقل تقدير • وهذا ما يراه عدد من المؤلفين • فبعضهم أرجع الادراك السابق الى اليقظة (ساندر (١) ، هوفدنج (٢) ، لولوران «٣» ،

---

(١) مجلة الطب العقلي مج ٤ ، ١٨٧٤ ص ٢٤٤ـ٢٥٣ .
(٢) هوفدنج : علم النفس ص ١٦٦ـ١٦٧ .
(٣) لولوران : في البارامنزيا : المجلة الفلسفية مج ٢٧ ، ١٨٩٤ ص ٢٠٨ـ٢١٠ .

بوردون (١) ، بيلوجو (٢)) ، و بعضهم أرجعه الى الحلم (جيمس سلي (٣) . لابي (٤) ، وغيرهما) وقال جراسه (٥) : سواء أرددناه الى الحلم أم الى اليقظة ، فهو راجع الى اللاشعور على أي حال • وهكذا يلاحظ هؤلاء المؤلفون أن ثمة تذكرا غامضا أو ناقصا لذكرى حقيقية ، سواء أكانت ذكرى شيء رأيناه أم ذكرى شيء تخيلناه •

ويمكن أن يقبل هذا الرأي ضمن الحدود التي يحصره فيها كثير من المؤلفين الذين يرونه • فهو ينطبق ، في الواقع ، على ظاهرة تشبه التعرف الكاذب من بعض الجوانب • فقد اتفق لكل منا أن تساءل لدى رؤيته مشهدا جديدا : ترى ألم أر هذا من قبل ؟ حتى اذا فكر تبين له أنه قد شهد ذات يوم شيئا مشابها يشترك مع التجربة الحالية ببعض

---

(١) بوردون : في تصرف حوادث جديدة المجلة الفلسفية مج ، ٣٦ ، ١٨٩٣ ص ٦٢٩—٦٣١ .

(٢) بيلوجو ، « حالة بارامنزيا » المجلة الفلسفية مج ٣٦ ، ١٨٩٣ ص ٦٢٩ — ٦٣١ .

(٣) ج سوني : اوهام الحواس والفكر ص ١٩٨ .

(٤) لابي : مذكرة عن البرانزيا ص ٢٥١ — ٢٥٢ .

(٥) جراسية : الاحساس بالمرئي من قبل ص ١٧—٢٧ .

السمات • الا أن هذه الظاهرة تختلف عن ظاهرة التعرف الكاذب كل الاختلاف • فان التجربتين تبدوان في التعرف الكاذب تجربة واحدة تماما ، ونشعر أثناء ذلك بأننا لا نستطيع . مهما فكرنا ، أن نرد هذه الوحدة الى تشابه غامض ، لأننا لسنا بازاء شيء رأيناه من قبل ، بل عشناه من قبل أيضا • فنحن نحسب أننا نستأنف استئنافا كاملا دقيقة أو بضع دقائق من حياتنا الماضية بكامل مضمونها التصوري والانفعالي والعلمي • وقد ذكر كربلن ، الذي ألح على هذا الفرق الأول ، فرقا آخر أيضا • فقال ان وهم التعرف الكاذب ينصب على الشخص فورا ، ويغادره فورا كذلك ، مخلفا وراءه شعورا بحلم • ولا نرى شيئا من هذا في ذلك الخلط . البطيء بعض البطء . بين تجربة حالية وبين تجربة ماضية تشبهها • أضف الى ذلك (ولعل هذا هو الأمر الجوهري) ان هذا الخلط خطأ كغيره من الاخطاء . أي ظاهرة ميدانها العقل وحده • على حين ان التعرف الكاذب يهز الشخصية بكاملها، فيعني العاطفة والارادة كما يعني العقل • والشخص الذي يعانيه يتملكه انفعال من نوع خاص ، فيشعر كأنه أصبح غريبا عن نفسه ، وكأنه أصبح آلة .

اننا هنا بصدد وهم يضم عناصر متعددة وينظمها في أثر واحد بسيط ذي فردية نفسية حقيقية .

فما هو مركز هذا الوهم ؟ أهو تصور ؟ أم هو انفعال ؟ أم هو حالة ارادية ؟ فأما الرأي الأول فهو رأي النظريات التي تفسر التعرف الكاذب بصورة تنشأ أثناء الادراك أو قبله بقليل ثم ما تلبث أن تنقذف الى الماضي . ولكي يعللوا هذه الصورة افترضوا أولا ان الدماغ (١) مزدوج ، وأنه يولد في الوقت الواحد ادراكين اثنين ، قد يتخلف أحدهما عن الآخر في بعض الحالات ، فنحسبه ذكرى لفرط ضعفه (فيجان ، جنسن) .

وقد تحدث فوييه أيضا عن فقدان التساير والمعية في المراكز العصبية . الذي ينشأ عنه ازدواج في الادراك ، وقال ان هذا ظاهرة مرضية من صدى وتكرار داخلي . الا أن علم النفس يحاول اليوم (٢) أن يستغني عن هذه المخططات التشريحية ، وقد أهمل فرض الثنائية الدماغية اهمالا تاما .

---

(١) برجسون : الطاقة الروحية ص ١٠٧ .
(٢) الذاكرة وتعرف الذكر ياتي ، مجلة العالمين ، ١٨٨٥ ج ٧٠ ص ١٥٤ .

ويبقى اذن أن تكون الصورة الثانية ناشئة عن الادراك نفسه • وهذا رأي أنجل الذي قال أنه يجب التمييز ، في كل ادراك ، بين جانبين : أولهما الانطباع الخام الذي يسقط على الشعور ، وثانيهما ادراك الفكر لهذا الانطباع • وهذان الأمران يتمان في العادة معا ، ويغشى أحدهما الآخر ، الا أنه قد يتخلف الثاني قليلا ، فيتبع ذلك ازدواج في الصورة بسبب التعرف الكاذب •

ويرى بيرون مثل هذا الرأي • أما لالاند فيقول : ان المشهد يمكن أن يحدث فينا انطباعا أول ، آنيا ، لا نكاد نشعر به ، ثم يعقب ذلك ذهول يدوم بضع ثوان ، وبعد ذلك يتم الادراك العادي ، فاذا عاد الينا الانطباع الأول في هذه اللحظة الاخيرة، كان لنا بمثابة ذكرى غامضة غير معينة في الزمان . فوقعنا في التعرف الكاذب • وأيد هذا الرأي آرنو (١) •

وعرض ميرز تأويلا لا يقل عن هذا براعة . وهو قائم على التفريق بين الأنا الشاعرة والأنا

---

(١) برجسون : الطاقة الروحية ص ١٠٨ .

المقيمة تحت عتبة الشعور ، فقال : ان الأنا الأولى لا تتلقى من المشهد الذي تشهده الا انطباعا اجماليا . تتأخر تفصيلاته دائما عن تفصيلات المنبه الخارجي ، وتكون الأنا الثانية أثناء ذلك قد أخذت تلتقط صور هذه التفصيلات على الفور • فهذه الأنا الاخيرة تسبق الشعور اذن ، فاذا ظهرت له فجأة.كانت تتقدم ذكرى ما هو مشغول بادراكه (١)•

ولقد وقف لومتر موقفا وسطا بين موقف لالاند وموقف ميرز • وكان دوجا قد قال قبل ميرز بفرضية ازدواج في الشخصية • وأخيرا فان ريبو ، منذ فترة طويلة . قد دعم الرأي القائل بوجود صورتين. اذ افترض نوعا من التوهم يعقب الادراك ، ويكون أقوى منه .فيقذف الوهم بالادراك الى وراء . ويدعه كالذكريات •

ليس بمقدورنا أن نتعمق في فحص كل واحدة من هذه النظريات التعمق الذي تقتضيه ، ونكتفي بأن نقول : اننا نسلم بمبدئها . ونؤمن بأن التعرف الكاذب يتطلب بالفعل ، وجود صورتين في الشعور

---

(١) ميترز : الانا تحت الشعورية . جمعية البحوث الروحية ج ١١ • ١٨٩٥ • ص ٢٤٣ •

احداهما نسخة عن الأخرى • ولكن الصعوبة الكبرى في اعتقادنا هي أن نعرف . في وقت واحد . لماذا تقذف احدى الصورتين في الماضي ، ولماذا يستمر الوهم ؟ انكم حين تفترضون الصورة المقذوفة في الماضي سابقة على الصورة المحدودة في الحاضر ، وتعدونها ادراكا أول أقل شدة أو أقل انتباها أو أقل شعورا من الادراك الحاضر ، فانكم تحاولون حقا أن تفهمونا لم تتخذ الصورة شكل ذكرى . ولكنا لن نكون عندئذ الا بصدد ذكرى لحظة معينة من الادراك . والوهم على هذا الاساس لن يستمر ولن يتجدد خلال الادراك كله • أما اذا قلتم ان الصورتين تتكونان معا ، أمكننا أن نفهم عندئذ استمرار الوهم ، ولكن انقذاف احدى الصورتين الى الماضي يبقى عندئذ بدون تفسير • هذا الى أنه من المشكوك فيه أن تكون أية فرضية من هاتين الفرضيتين ، حتى الأولى منهما ، قادرة على أن تفسر فعلا هذا الانقذاف . ومن المشكوك فيه أيضا أن يكون ضعف الادراك أو كونه لا شوريا كافيا لابرازه في صورة ذكرى • ومهما يكن من أمر فان النظرية التي تتناول مسألة التعرف الكاذب لا بد أن يتحقق فيها هذان الشرطان اللذان ذكرناهما .

وفي اعتقادنا ان (١) هذين الشرطين لن يجتمعا ما لم نتعمق طبيعة التعرف العادي من وجهة النظر النفسية المحضة .

ولا بد لنا من التقصي عن أصل هذه الظاهرة في نطاق العمل ، لا في نطاق العاطفة ، ولا في نطاق التصور . وذلكم هو في الواقع اتجاه أحدث النظريات في التعرف الكاذب . وقد أشرنا قديما ، منذ سنين طويلة ، الى ضرورة تمييز درجات مختلفة في توتر الحياة النفسية ، وقلنا ان النفس يزداد توازنها بنسبة ما يزداد اتجاهها الى العمل ،ويزداد ترنحها بنسبة ما تزداد ارتخاء كما لو كانت تحلم ، وان بين هذين المستويين الاقصيين ، مستوى العمل ومستوى الحلم ، مستويات وسيطة ، هي درجات هابطة من الانتباه الى الحياة ، والتلاؤم مع الواقع (٢) .

وقد قبلت آراؤنا يومئذ في شيء من التحفظ ، وحكم عليها بعضهم بأنها آراء غريبة مفارقة .

---

(١) برجسون : الطاقة الروحية ص ١١١ .
(٢) برجسون : المادة والذاكرة ص ١٨٤ .

لأنها كانت في الواقع ، تصطدم بنظريات قبلها الناس ، أعني كانت تصطدم بالمفهوم الذري للحياة النفسية • ولكن علم النفس أصبح يقترب منها شيئا بعد شيء ، ولا سيما منذ توصل بيير جانيه ، من جهته ، وبطرق أخرى ، الى نتائج تتفق مع نتائجنا كل الاتفاق • ولذلك أخذوا يبحثون عن أصل التعرف الكاذب في نوع من الهبوط في التوتر النفسي • فأما بيير جانيه فرأى أن الهبوط يسبب الظاهرة مباشرة ، وذلك بانتقاصه الجهد التركيبي الذي يصاحب الادراك العادي ، فيأخذ الادراك العادي عندئذ شكل ذكرى غامضة ، أو شكل حلم ، وأن ليس ههنا الا مظهر من مظاهر الشعور بعدم التمام ، هذا الشعور الذي درسه بيير جانيه دراسة أصيلة : فالشخص يشعر بأن الشيء غير واقعي تماما ، فتراه يحتار لا يدري أهو بازاء حاضر ، أم ماض ، أم مستقبل •

وقد أخذ ليون كندبرج بهذه الفكرة القائلة بنقصان الجهد التركيبي ، ووسعها ، وحاول هيمانس من جهة أخرى أن يبين كيف أن هبوط الطاقة النفسية يمكن أن يبدل وجه محيطنا المعتاد ، فيخلع على ما يجري في هذا المحيط صورة المرئي

من قبل . قال : « اننا حين لا نرجع الا ترجيعا خافتا صدى الترابطات التي يوقظها فينا المحيط باطراد ، يحصل نفس ما يحصل في الحالات التي نرى فيها من جديد ، بعد سنين عديدة ، أماكن وأشياء رأيناها من قبل ، ونسمع فيها من جديد ألحانا سمعناها من قبل لكننا نسيناها منذ زمان طويل (١) .

ولما كنا قد تعودنا في هذه الحالات أن نفسر ضعف اندفاعة الترابطات بأنها علامة تجارب سابقة تتصل بنفس أشياء اللحظة الحاضرة ، لذلك كنا في الحالات الأخرى أيضا ، أي حين لا يطلق فينا المحيط المعتاد ، لنقص في قوتنا النفسية ، الا صدى ضئيلا ، نشعر أن هذا المحيط تكرار دقيق لحوادث شخصية، ولظروف مستمدة من قرار ماض غائم(٢) » وأخيرا، في دراسة عميقة تنطوي في صورة ملاحظة ذاتية على تحليل من أعمق التحليلات التي ظهرت بصدد التعرف الكاذب ، فسر دروما ، وآبيس ، هذه

---

(١) برجسون : الطاقة الروحية ص ١١٢ .

(٢) هيمانس : المجلة النفسية مج ٢٧ ، ١٩٠٤ ، ص ٣٢١ — ٣٤٣ .

الظاهرة بنقص في الاشتداد الانتباهي . يؤدي الى انقطاع بين الحياة النفسية العليا ، والحياة النفسية الدنيا • فالأولى اذ تعمل بوقتها بدون معونة الثانية ، تدرك الشيء ادراكا آليا . والثانية تنصرف بكاملها الى تأمل الصورة التي التقطتها الأولى بدلا من أن تنظر الى الشيء ذاته •

ورأينا في هذين الرأيين ما قلناه فيما سبقهما من آراء ، من أننا نسلم بمبدئهما • فالواقع أن هبوط الحياة النفسية بوجه عام هو الاصل الاول للتعرف الكاذب • ولكن النقطة الصعبة هي أن نحدد هذه الصورة الخاصة التي يتخذها عدم الانتباه الى الحياة ، وأن نعرف أيضا لماذا كانت تجعلنا نحسب الحاضر تكرارا للماضي • حقا ان مجرد الارتخاء في الجهد التركيبي الذي يقتضيه الادراك يخلع على الواقع مظهر الحلم • ولكن لماذا يظهر هذا الحلم كأنه تكرار تام لدقيقة عشناها من قبل ؟ هب الحياة النفسية العليا تضيف انتباهها الى ذلك الادراك غير المنتبه • ان ما سيحصل حينذاك هو أننا سنكون بازاء ذكرى متأملة في انتباه • لا بازاء ادراك مشفوع بذكرى • هذا وان كل ما يمكن أن يفعله الكسل الذي يصيب الذاكرة الترابطية ، كالكسل

الذي افترضه هيمانس ، هو أن يجعل تعرف المحيط شاقا • وشتان بين مألوف يصعب تعرفه ، وبين ذكرى تجربة سابقة محدودة ، مماثلة للتجربة الحالية من كل النقاط • والخلاصة يبدو أنه لا بد أن نمزج هذا المذهب الأخير في التعليل بالمذهب الأول ، وأن نسلم بأن التعرف الكاذب يرجع في الوقت نفسه الى نقصان في التوتر النفسي والى ازدواج في الصورة ، وأن نبحث بعد ذلك عما يجب أن يكون هذا النقصان حتى ينتج الازدواج ، وعما يجب أن يكون هذا الازدواج اذا كان تعبيرا عن نقصان فحسب • على أننا لن نحاول أن نقرب الطريقتين احداهما من الأخرى تقريبا مصطنعا • وفي اعتقادنا أن التقريب يتم من تلقاء ذاته اذا نحن تعمقنا آلية الذاكرة في الاتجاهين المشار اليهما ••••

وبعد أن يورد برجسون ملاحظة بشأن الوقائع النفسية المرضية ، أو غير السوية يعترف أن الرأي، حتى في صورته هذه ، لا يزال من العموم بحيث لا يفيد في التفسيرات النفسية التفصيلية • غير أنه ، على الأقل ، يشير الى الطريق الواجب اتباعه في البحث عن التفسير • فاذا سلمنا به لم يبق مجال

للبحث ، وراء الحادثة المرضية أو غير السوية التي تتجلى بصفات خاصة ، عن سبب فاعل ينتجهـا ، فهذه الحادثة ، رغم كل المظاهر ، ليس فيها شيء من ايجاب ولا مـن جـدة ، وهي تتم في الحالات السليمة نفسها ، وانما يمنعها هنالك من الظهور في اللحظة التي تشاؤها جهاز من تلك الاجهزة المضادة، العاملـة باستمـرار ، التي تضمن الانتبـاه الى الحياة (١) ٠

وذلك أن الحياة النفسية السليمة ، على نحو ما نتصورها ، هي مجموعة من الوظائف ، لكل منهـا جهاز خاص ٠ وكل جهاز من هذه الاجهزة ، اذا ترك وشأنه ، أدى الى طائفة من النتائج غير المفيدة أو المؤذية التي تشوش الاجهزة الأخرى ، وتربك توازننا الحركي ، أي تربك تلاؤمنا مع الواقـع تلاؤما مستمرا متجـددا ٠ الا أن عمل الحـذف والتصحيح والتنظيم لا ينقطع ، وبه انما تتم لنا العافية النفسية ٠

واذا ضعف هذا العمل ، ظهرت أعراض معينة ،

---

(١) برجسون : الطاقة الروحية ص ١١٦ .

نحسب أنها وجدت عندئذ ، في حين أنها كانت دائما موجودة ، أو على الأقل كان يمكن أن تكون موجودة لو ترك الحبل على الغارب • صحيح ان من الطبيعي أن يلتفت نظر الباحث الى الطابع النوعي للحوادث المرضية • فلما كانت هذه الظاهرات معقدة ، وكان يتجلى في تعقدها مع ذلك شيء من الترتيب ، كان طبيعيا أن يردها لأول وهلة الى مسبب فاعل ، قادر أن ينظم عناصرها • ولكن لئن كان المرض ، في ميدان الروح ، عاجزا عن خلق شيء ما ، فما هو الا توقيف أو تبطئة لبعض الاجهزة التي كانـت تمنع غيرها ، في الحالات السوية ، من أن تؤدي كل ما تستطيع تأديته • وعلى هذا الاساس فلن تكون المهمة الرئيسية التي تقع على عاتق علم النفس أن يقول لماذا تحصل هذه الظاهرات المعينة في المريض ، بل لماذا لا تلاحظ في الانسان السليم ؟

ومن الملاحظ أن برجسون يمضي في تحليـل ظاهرات الحلم الذي يرى أنه يحاكي الجنون العقلي من كل النقاط ، فانه ليمكن أن تطبق ظاهرات الحلم على كثير من ظواهر الجنـون ، وليست مفـاهيم التعرف الكاذب سوى واحدة من هذه الظاهرات غير السوية ، كونه يعود الى ضعف موقت في الانتبـاه

العام الى الحياة (١) • اذ ينحرف الشعور عن اتجاهه الطبيعي ، ويلهو بالنظر فيما ليس يفيده أن ينظر فيـــه •

والتعرف الكاذب باعتقاد برجسون من ضمــن أشكال عدم الانتباه الى الحياة ، وأقلها ضررا • باعتبار ان الضعف المستمر في الانتباه الأساســي يتجلى باضطرابات نفسية عميقة ودائمة • ولكن قد يحتفظ هذا الانتباه بشدته العادية ، ثم يتجلى ضعفه على نحو آخر كأن يتوقف عن العمل لحظة يسيرة جدا من حين الى حين فمتى حصل التوقف ، وصل التذكر الى الشعور ، وغشاه بضع لحظات ، ثم ما لبث أن ارتد كما ترتد الموجة (٢) •

ولنختم بحثنا هذا بفرضية أخيرة أوجستموها من أوله • ما دام عدم الانتباه الى الحياة يمكن أن يتخذ صورتين تتفاوتان فداحة ، أفلا يكون مــن حقنا أن نفترض أن الصورة الأولى ، الاقل فداحة ، هي وسيلة للوقاية من الثانية ، وأنه حيث يكون هنالك نقص في الانتباه يخشى أن يتجلى في انتقال

(١) برجسون : الطاقة الروحية ص ١٣٤ .
(٢) المصدر نفســه ص ١٣٨ .

حاسم من حالة اليقظة الى حالة الحلم ، يبادر الشعور الى حصر الأذى في بضع نقط معينة يهيء فيها للانتباه وقفات قصيرة ، فيستطيع الانتباه أن يظل ، في كل ما تبقى من وقــت ، متصلا بالواقــع ؟ ان بعض الحالات الواضحة من التعرف الكاذب تؤيــد هذه الفرضية ، فيحس المريض ، لأول وهلة ، بالانفصال عن كل شيء ، كأنه في حلم ، فاذا وصل الى التعرف الكاذب ، بدأ بالعودة الى ذاته فورا ٠

فلعل هذا الاضطراب في الارادة هو الذي يحدث التعرف الكاذب ٠ لعله سببه الأصلي ٠ أما السبب القريب فيجب أن نبحث عنه في غير ذلك ، يجب أن نبحث عنه في عبث الادراك والذاكرة مجتمعين ٠ ان التعرف الكاذب ينشأ عن الاشتغال الطبيعــي لهاتين الوظيفتين اذا تركتا وشأنهما ، ولــولا أن الارادة ، الموجهة نحو العمل بدون انقطاع ، تحول دون ارتداد الحاضر الى ذاته ، وذلك بدفعه أبدا الى أمام ، لحصل التعرف الكاذب في كل لحظة ٠ ان وثبة الشعور التي تتجلى بها وثبة الحياة تند ببساطتها عن التحليل ٠ الا أنه يمكننا على الاقل أن ندرس ، في اللحظات التي تتباطأ فيها ، شروط توازنهــا

الحركي الذي استقام لها الى ذلك الحين ، فنحلل بذلك مظهرا تتراءى ماهيتها من خلاله .

برجسون وتولد المادة العنصري :

في نهاية دراستنا لأعمال الفيلسوف الكبير هنري برجسون لا بد لنا من تقديم رأيه حول تولد المادة العنصري الذي أخذناه من كتابه « التطور الخلاق » تعميما للفائدة ، يقول : لنتصور اناء ممتلئا من البخار المتوتر توترا شديدا ، ولنتصور في جوانب هذا الاناء ثغرات يتفجر منها البخار دفعات متتالية في الفضاء،ثم لا تلبث كل دفعة أن تتحول في معظمها، الى قطرات ماء تتساقط . فهـذا التحول وهـذا التساقط يمثلان مجرد فقدان شيء : كالانقطاع ، أو العجز ، وما أشبه . لكن جزءا صغيرا من هذا البخار الذي لم يكمل صعوده يظل صاعدا وجاهدا في رفع القطرات المتساقطة ، أو في مقاومة سقوطها، على الأقل .

وعلى هذه الصورة يجب أن تثب ، بلا انقطاع ، من مستودع حياة عظيم دفعات تشكل كل منها عالما بتساقطها ، فتطور الأنواع الحية في داخل هذا العالم

يمثل ما تبقى من الاتجاه الاول للدفعة الأصلية ، ومن وثبة تستمر ماضية في اتجاه معاكس لاتجاه المادة · غير أن هذه المقارنة لا تطابق الواقع كل المطابقة ، ولا تقدم لنا منه سوى صورة متضائلة ، وقد تكون خادعة ، لأن الثغرة في جانب الاناء ، ودفعه البخار ، ومقاومة القطرات المتساقطة ،تتحدد لزوما ، انما خلق عالم ، فهو فعل حر ، وأما الحياة في داخل العالم المادي ، فانها تشترك في هذه الحرية· لنتصور بالأحرى حركة كحركة ذراع ترتفع ، ثم لنفرض أن هذا الذراع ، وقد تركت لذاتها ، تعود الى السقوط ، ومع ذلك ، يتبقى فيها شيء من الارادة التي حركتها يحاول رفعها مجددا : ان صورة حركة خلاقة تتقهقر مثل هذه الصورة تمثل لنا المادة تمثيلا أدق ، وترينا ما يتبقى ، في النشاط الحيوي،من الحركة المباشرة ضمن الحركة المعاكسة، أي انها ترينا واقعا يستمر في تقدمه عبر واقع يتقهقر ·

وتظل فكرة الخلق مبهمة في خاطرنا طالما افتكرنا في أشياء تُخلق وفي شيء يَخلُق ، كما تصنع عادة واضطرارا ، لأن عقلنا هو قوة عملية ، في الاساس ، معدة لأن تصور لنا أشياء وحالات بدلا من تغيرات

وأفعال • غير أن الاشياء والحالات ليس سوى نظرات يلقيها عقلنا على الصيرورة • ليس ، ثمة ، أشياء ، بل أعمال فحسب • حينما أنظر الى العالم الذي نعيش فيه أن أن التطور الآلي ، والمحدد تحديدا دقيقا ، الذي يتطوره هذا الكل المتلاحم هو عمل يتقهقر ، وان القوى غير القابلة للارتقاب التي تمثلها الحياة فيه ، وهي قوى يمكنها أن تتابع في شكل حركات غير مرتقبة أيضا ، تدل على عمل يتحقق • ثم يمكنني أن أعتقد أن العوالم الأخرى تشبه عالمنا ، وأن الأمور تجري فيها كما تجري في عالمنا • غير أني أعلم أن هذه العوالم لم تتكون في زمن واحد ، لأنني الاحظ ، في يومنا هذا ، مجرات في طريق التكتل • ان يكن ذات النوع من العمل يتحقق في كل مكان ، اما تقهقرا ، واما تجددا ، فاني أعبر عن هذه المشابهة حينما أتكلم عن مركز تتفجر منه العوالم كما تتفجر الأسهم النارية من ضمنه هائلة ــ شرط ألا أجعل من هذا المركز شيئا ، بل تفجرا متتابعا ــ ثم ، لو جاز لنا أن نحدد الله بمثل هذا التحديد ، لما كان شيء جامد في الله ، بل حياة مستمرة ، وعمل ، وحرية •

ولما كانت الحياة سرا ، لأننا نختبرها في داخلنا

حالما نعمل بحرية · أن تستطيع أشياء جديدة أن تضاف الى الاشياء الموجودة ، هذا زعم باطل ، بلا شك ، لأن الشيء ينجم عن تجميد يقوم به عقلنا ، ولأنه لا توجد أشياء أخرى غير الاشياء التي أقامها عقلنا ، فالكلام عن أشياء تخلق يعني أن العقل يصنع أكثر مما يستطيع أن يصنع ، وهذا كلام متناقض ، وتصور فارغ وباطل · أما أن يتضخم العمل في تقدمه ، وأن يخلق تباعا وهو يتقدم ، هذا ما يتحققه كل واحد منا حينما ينظر الى نفسه وهو يعمل · يقيم عقلنا الاشياء باقتطاعها ، في لحظة من اللحظات ، اقتطاعا حاليا من مد متدفق ، وان ما نظنه سرا حينما نقابل بين الاشياء المقتطعة يصبح واضحا حينما لا ننظر الا الى هذا المد بجملته بتراجع عقلنا ، حائرا ، أمام تشابك بنيته عضوية ما ، وأمام العدد الهائل من التحليلات والتركيبات المتداخلة التي تفرضها · أن تستطيع قوى طبيعية وكيماوية أن تصنع هذه المعجزة بمجرد تفاعلها ، فهذا ما يصعب علينا اعتقاده · نخطيء حينما نتصور ، تصورا مجمدا ، جزيآت مادية جاهزة يضاف بعضها الى بعض ، وحينما نتصور كذلك تصورا مجمدا ، سببا خارجيا ينظمها تنظيما حاذقا ·

فالحياة هي ، بالحقيقة ، حركة ، والمادة هي حركة معاكسة . وكل حركة منهما هي حركة بسيطة : ان المادة التي تشكل عالما تمثل مدا غير مجزأ ، وكذلك الحياة التي تجتازها وتقتطع منها كائنات حية ، تمثل فعلا غير مجزأ ، فكأنما يوجد بين هذين التيارين نوع من التعايش السلمي نسميه تنظيما. يأخذ هذا التنظيم أمام حواسنا وفهمنا شكل أجزاء منفصلة بعضها عن بعض في الزمان والمكان . اننا نغض الطرف عن وحدة الاندفاع الذي يجتاز الأجيال ويربط الافراد بالافراد ، والانواع بالأنواع ، ويجعل من سلسلة الاحياء جميعا موجة هائلة واحدة تطغى على المادة ، وعلاوة على ذلك ، يظهر لنا كل فرد كمجموعة أجزاء وكمجموعة أفعال معا .

والسبب يعود الى بنية فهمنا المعد لأن يؤثر في المادة من الخارج ولا يتمكن من ذلك الا بلجوئه الى أن يقتطع من مد الواقع اقتطاعات يصبح كل منها ، في تجمده ، قابلا لتجزئة لا حد لها . لا يرى ادراكنا في بنية عضوية سوى أجزاء مضافة الى أجزاء ، لذلك لا يجد أمامه سوى طريقتين للتفسير وعليه أن يختار احداهما : فاما أن يعتبر هذا التنظيم

المعقد أشد التعقيد حشدا اتفاقيا ، أو أن يرده الى مفعول قوة خارجية غامضة عملت على جمع عناصره • غير ان ادراكنا هو ذاته مصدر هذا التعقيد وهذا الغموض • يجب علينا بدلا من أن نرى بنظر فهمنا الذي لا يدرك سوى الشيء الجاهز ، والذي لا ينظر الا من الخارج ، أن نرى بنظر روحنا ، هذه المقدرة النظرية الملازمة لمقدرة العمل ، والنابعة من التواء الارادة على ذاتها • حينئذ ، كل شيء يعــود الى الحركة ويتفسر بالحركة ، وحينئذ ، حيث كــان فهمنا يرينا أجزاء لا يحصى عددها ، ونظاما بالغ الحذق ، لأن هذا الفهم كان ينظر الى العمل الجاري نظره الى شيء مجمد ، نلمح ثمة تطورا بسيطا ، وعملا يتكون عبر عمل من ذات النوع ينحل ، كما يشق السهم الناري طريقه عبر الحطام المتساقط من الأسهم النارية الهامدة •

« تم الكتاب »

الفهـرس